



سلسلة الرواية العربية المعاصرة
(٢٠)

العابرة:

أقدم قصة حب في التاريخ

رواية



زيد عمران

دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني
طبعة أولى
فبراير ٢٠١٦

دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

سلسلة الرواية العربية المعاصرة (20)

العابرة:

أقدم قصة حب في التاريخ

رواية

زيد عمران

زيد عمران: العابرة: أقدم قصة حب في التاريخ، رواية. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، فبراير 2016

سلسلة الرواية العربية المعاصرة (20)

سلسلة تصدر عن دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

المؤلف: زيد عمران

العنوان: العابرة: أقدم قصة حب في التاريخ

التصنيف: رواية

الطبعة الأولى: فبراير 2016

تصميم الغلاف: المبدع محمود الرجبي

تصميم الكتاب ومراجعته لغويا: د. جمال الجزيري

الناشر: دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

دار نشر إلكترونية مجانية لا تهدف للربح

للمراسلة لنشر أعمالكم في السلاسل المختلفة التي تصدرها الدار، الرجاء قراءة التعريف بمجموعة

دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني لمعرفة مواصفات تجهيز الملف:

[/https://www.facebook.com/groups/Ketabat.Jadidah.Ebook.Publishers](https://www.facebook.com/groups/Ketabat.Jadidah.Ebook.Publishers)

وإرسال الملف وفقا لشروط النشر على إيميل د. جمال الجزيري أو على الخاص في صفحته على

الفيس بوك:

elgezeerv@gmail.com

<https://www.facebook.com/gamal.elgezeerv>

@2015 حقوق نشر النصوص ملك لأصحابها، وحقوق هذه الطبعة الإلكترونية ملك لدار كتابات

جديدة للنشر الإلكتروني. وكل كاتب مسئول عن لغته وعن أسلوبه وعن محتوى كتابه وأية

منازعات خاصة بحقوق الملكية الفكرية يكون طرفها المؤلف وليست الدار طرفا فيها.

العبارة

دلمون، تعبر العالم إثر العالم، تبحث عن حبيبها

سومر

الإهداء

إلى كل النساء والرجال اليائسين: نعم، هنالك أمل.

الفصل الأول

الصياد

في هذا اليوم أيضاً، ذات الأشياء تتكرر برتابة مملة، ذات الشمس بذات الحركة، شروق وغروب، ذات الأضواء القادمة من المجهول، تعبر ملايين المسافات كي تصل إلينا على شكل نجمة، ذات الولادة، ذات الموت، ذات السؤال القديم عن جدوى الوجود وذات الصراع. وهنا على هذه التلة كانت العجلة الخلفية لدراجته الهوائية تصارع عبثاً اللحاق بغريماتها الأمامية التي ربما كانت تشعر بوهم الانتصار لأن القدر جعلها بالمقدمة وهي لا تعلم بأن المنتصر الوحيد من هذا الصراع هو الصياد الذي يحرك عجلة الصراع محاولاً اللحاق بآخر لحظةٍ لرغيف الشمس قبل أن تأكله أفواه الليل، حريصاً على العمل بنصيحة والده الصياد العتيق الذي أوصاه بالغروب إن هو أراد اصطياد سمكة كبيرة بدون فترة انتظارٍ طويلة.

راح يقود دراجته الهوائية بسرعة أكثر وهو يتفقد حقيبته ظهره التي تحمل عدة صيده وصنارتيه اللتين قام

بتفكيكهما ووضعهما في الحقيبة القديمة اليدوية الصنع التي لم يعد أحد يصنعها الآن، تلك الحقيبة التي أهداها له صاحب محل عدّة الصيد بعدما أهداه هو سمكة اصطادها قبل أسبوع، ثم وعند المنحدر يترك الدراجة تنساب تلقائياً في الطريق المتعرج بعد أعلى التلة حيث منزله الريفي الصغير بمسافة حتى البحر اللامتناهي الملتصق بالسما تاركاً لرنة روح الدراجة الحرة في تنفس اللوحات الزراعية الخضراء التي تشبه الجنة الوارد ذكرها في رسائل الله إلى البشر في كتبهم المقدسة. يعبر التلال والحقول والبيوت القليلة المتناثرة هنا وهناك بعد أن ملأ جيوب خرج دراجته بالأطعمة المتنوعة له وللأسماك ولصديقه العجوز الذي ربما سيلتقيه في هذه الليلة الصيفية. صديقه الآخر وحيد بعد أن مزق مزاجه الصعب خيوط الترابط الاجتماعي في بلد لا يحتاج الفرد كثيراً إلى علاقات القطيع الجمعي كي يستمر على قيد الحياة .

كان يقود دراجته ويصارع هو الآخر كل تلك الخواطر المزمنة التي تمر على قلبه وقوافل غيوم الوهم التي لم يستطع بعد معرفة وسيلة الخلاص من تدفقاتها.

ماذا لو أن دراجته الهوائية كانت أسرع قليلاً، بسرعة الأرض، هل بإمكانه اللحاق بالأمس الذي لم ينتهِ بعد، إن هو سار عكس حركة الأرض؟

ماذا لو استطاع الحفاظ على سرعتها، هل سيبقى خالداً في لحظة الغروب الأبدي؟

شعر بالامتنعاض من فكرة الخلود المخيفة، فهو حتى هذه اللحظة لم يتوصل إلى سبب واحد مقنع لجدوى وجوده.

حينما وصل إلى البحر كانت الشمس تغوص فيه حتى خصرها، ربما تحاول هي الأخرى اصطياد سمكة كبيرة قبل رحيلها، كانت هذه إحدى خواطره التي لا تنتضب.

أسرع بإعداد الطعم ورمى الصنارة بعيداً وغرس قصبته بالرمل وعلق جرساً صغيراً في أعلى القصبه كي ينبهه عندما تعلق سمكة ما بصنارته في الظلام الذي سيحل بعد قليل. هو عادةً يربط هذا الجرس بالقصبه حتى وهو يصطاد في وضح النهار لأنه لم يجد بعد الوسيلة التي يتخلص بها من خواطره الكثيرة. راح يعد الصنارة الأخرى

وهو يلتفت باحثاً عن صديقه العجوز الذي أخبره بالأمس بأنه ربما سيكون هنا عند الغروب إن كان مزاجه يسمح بذلك. هو ليس صديقاً مقرباً منه، بل رفيق شاطئ وثرثار مما يجعله متيقظاً ويساعده في التخلص من هذا التيه المزعج الذي تأخذه خواطره إليه كلما كان وحيداً. رفيقه العجوز لم يكن يهوى الصيد منذ البداية، لكنه بدأ بالتعود على البحر والجري وراء الأسماك قبل عشر سنوات عندما وجد نفسه وحيداً بعد تقاعده عن العمل ووفاة زوجته في نفس السنة. بوفاة زوجته تحققت عدالة الحياة حسبما أخبره بذلك، كان الخلاص العادل لكليهما فهي تخلصت من كثرة استيائه من تصرفاتها وهو قد تخلص من معاناته في رؤية زوجته وهي تهتم بغيره ولا تعير لغيرته أهمية إذ كانت تخونه مع مكتبتها التي تعطيها جلّ وقتها وكانت تنام في حضنها أغلب الليالي وترمي له فتات الدقائق والثواني.

ما إن رمى صنارته الثانية حتى أقبل صديقه العجوز وهو يحمل صنارته الوحيدة القديمة، فهو لم يغيرها منذ عشرة أعوام لأن البشر لم يعودوا عظماء كالسابق ويصنعوا

الأشياء الجيدة التي كانوا يصنعونها في قديم الأيام، لأن الرجال العظماء ببساطة قد أفنتهم الدنيا ولم يبقَ منهم إلا العجوز وصاحب محل أدوات الصيد ورجلٌ غريبٌ كان ماراً من الطريق الزراعي وأوقف سيارته ونزل من أجل وردة كانت مرمية على الطريق تركها فوق سياج أحد البيوت كي لا تدهسها السيارات وبالصدفة كان السياج للحديقة الخلفية للرجل العجوز.

رفع الرجل العجوز صوته وهو ينزل المنحدر المرتفع نسبياً عن ساحل البحر الرملي ويظن أن الناس كلها مصابة بضعف السمع الذي أصابه من سنتين ولم يرغب بتركيب تلك الآلة الخفية في أذنه لأنه لا يرغب أن يتحول إلى إنسان آلي.

قال العجوز:

— الليلة من أجمل ليالي تموز، لم أشأ أن أفوت سحرها على البحر ولا أخفيك لم أتوقع أن أجذك أمامي.

— لكني أخبرتكَ أنني سأكون هنا، ولقد ظننت أن مزاجك
منعك من القدوم لأنك ربطت مجيئك بالمزاج.

— لقد كان حظك جيداً بالأمس واصطدتَ سمكتين كبيرتين
وأنت كما أخبرتني وحيد، ففكرت أنك ربما لا تأتي
الليلة لأن لديك من السمك ما يكفي لأيام.

— السمكتان أهديتهما لجارتي، كان عيد ميلادها بالأمس ولم
أجد غير السمكتين هدية وأبدت سعادتها بالهدية ولا
أظنها تجاملني، ولكني لا أصطاد دائماً لمجرد أن أطهو
صيدي وأكله، لا أدري ربما ترى الأمر مضحكاً لكني
أسمع صوت دراجتي الهوائية تتناديني وهممة صنارة
الصيد وهما يتوسلان أن آتي بهما إلى البحر وكثيراً ما
أحرر السمكات بعد صيدها وأتقدم بشكري لها لأنها
أدخلت المتعة في حياتي.

فأجابه العجوز بعد أن قام بحكّ ذقنه بالقرب من تفاحة

آدم :

— أتعلم، لو أنك بقيت على هذا الحال كثيراً فربما تصبح أحد الرجال العظماء الذين لم يبق منهم غير ثلاثة، فالرجال العظماء في نظر الناس مجانيين وكلامك عن سماعك لأصوات الدراجة والصنارة قد يفهمه غيري على أنه جنون، لكنني أعزوه إلى وحدتك، فلقد مررتُ بهذه الحالة من قبل وكنت أسمع بعض الأصوات والهمهمات، لكن لا تقلق فما هي إلا مرحلة وستشفى منها.

— ما علينا، لقد أحضرتُ بعض الطعام لسهرتنا وإبريقاً من القهوة، هل ترغب في شيء الآن؟

— شكراً فمزال الوقت مبكراً على الأكل والشرب.

في هذه الأثناء لملم الليل ضياءه الأسود وغطى به وجه الشمس كالبرقع فراحت تمشي على استحياء كابنة شعيب وتختفي خلف الجزيرة الصغيرة المهجورة التي تتوسط البحر الملتصق بخد السماء النائمة على صدر البحر.

راح العجوز يشعل النار ويخرج من حقيبته ذات اللون الذي يشبه قشر الزيتون الخضراء قنينة نبيذ أحمر وليمونة خضراء مصفرة قطعها إلى أربعة مراكب صغيرة وجلس قرب النار وأخذ جرعة من النبيذ يلوكها في فيه، يحولها من جنب إلى جنب كأنما يملك أكثر من حاسة تذوق داخل فمه الواحد، بعدما فرك الكأس بيديه الاثنتين وقرب الكأس من أنفه واستنشق عطره وراح يرمق صديقه الأربعيني بنظرة استفهام، وهو يراه يخلع قبعته وحذاءه ويتوجه إلى البحر ويعتريف منه غرفات متكررة يغسل بها وجهه ويديه وقدميه، ويتمشى حافياً ويقف على رمال الساحل، ويقرأ كلمات لا يفهمها بدت كأنها لغة ساحرٍ من القرون الوسطى، ثم ينحني ويضع جبهته وأنفه على الرمال ويعيد هذه الحركات المرة تلو الأخرى.

بعدما أنهى صلاته أخرج إبريق القهوة وفنجانين ورقيين وعلبة تبغه المعطر وتأكد من وجود مجموعة من الورق الأبيض التي يلف بها تبغه المعطر داخل العلبة، فبالأمس عاد مبكراً إلى البيت بعد الغروب بقليل لأنه نسي أن

يحضر الورق ولم يستطع أن يصبر أكثر من ساعتين بدون تدخين، جلس في الجهة الأخرى للنار مقابل صديقه العجوز وراح يعد بتآنٍ وبتآنٍ أول سيجارة كعازف بيانو محترف ويقدمها لصديقه، وعاد يلفُ سيجارةً أخرى أخذ بعدها غصناً محترقاً وأشعلها به، وصبَّ فنجان قهوة وأوماً للعجوز به فشكره العجوز بإيماءةٍ رافعاً كأس النبيذ يحيي به صاحبه المدمن على القهوة والتدخين والصلاة.

لم يمهله العجوز كثيراً، فبعد جرعة قهوةٍ واحدة وشهيقتين ممتلئتين بالتبغ المعطر بادره قائلاً:

— ماذا كنت تفعل قبل قليل؟

— كنتُ أصلي.

— وما هذه اللغة التي كنت تصلي بها، تبدو أنها لغة قديمة؟

— نعم إنها قديمة، لكن ليست أقدم اللغات، إنها العربية.

— وهل أنت عربي؟

— نعم.

- كنتُ أعتقد أنك أورياً من البوسنة أو اليونان.

- نعم عندك حق فنحن الشرق - أوسطيين نشبه اليونانيين كثيراً ولا فصلنا عنهم غير البحر الأبيض المتوسط.

- أنا أيضاً كنت أصلي حتى وجدتُ الله أناانياً جداً فبالرغم من أنني أذهب إليه كل أحد لم يزرنني ولا مرة واحدة في بيتي. في البداية كنت أعتقد أنه لا يعرف الطريق إلى بيتي حتى أخبرتُ الكاهن أن يعطي عنواني إليه فقال لي الكاهن إنه لا يكلمه ولا يراه لكنه يشعر بوجوده، فعرفت من عينيه وتلعثمته ونبرة صوته أنه كاذب وهو لم يشعر بالرب مطلقاً ولا وجود للرب أصلاً وكان آخر عهدي بالكنسية والصلاة.

- أنا أيضاً لم أره ولم أكلمه ولم أشعر به في حياتي وأعتقد أنه لا يعرف الطريق إلى بيتي ولا يعرف رقم تلفوني ولا أظنه يعرفني، لكنني أريد أن أعرفه كي أعرف نفسي، فلقد وصلت إلى طريقٍ مسدودٍ وأنا أتبع تعاليم معلمي الذي قال لي: "من عرف نفسه فقد عرف ربه".

فكلما سرت داخل نفسي أجدني أبتعد عنها أكثر، لذلك
أردتُ أن أقلب المعادلة وأعرف ربي ثم أسأله عن
نفسي.

فجأة قفز مسرعاً صوب صنارته وهو يسمع صوت
الجرس فقام بسحب الخيط وكانت سمكة سلمون متوسطة
الحجم تزن حوالي الثلاثة كيلو غرامات، راح العجوز يمد له
الشبكة ويضعها تحت السمكة ويساعده على إخراجها. كانت
هذه هي السمكة الوحيدة التي اصطادها تلك الليلة بينما لم
يكن العجوز محظوظاً خلال الثلاثة أيام الأخيرة فإنه لم
يصطد أي شيء، في هذه الليلة لم يكن الحظ هو السبب
الوحيد، فالعجوز لم يكن جدياً يرغب بالصيد فقد أمضى
الساعات حتى منتصف الليل بالشرب والغناء وتناول حلاوة
الجزر التي أحضرها له صديقه العربي والثرثرة، وقبل أن
يجمعا عدتهما استعداداً للعودة أهداه سمكته ولأنه يعرف
مزاج صديقه العجوز راح معللاً عمله هذا بعطلٍ أصاب
براده - بالفعل عطل البراد قبل يومين - وهو ليس بحاجة
ماسة إليه كي يصلحه، فهم العجوز الثرثار أن صديقه يريد

أن يهديه هذه السمكة لكنه يخشى أن يرفض، فهو ليس بذلك الغباء الذي يبدو عليه لذلك فقد دعا صديقه للغداء معاً في الغد في بيت العجوز وسيكون الغداء بالطبع هي سمكة السلمون.

في منتصف اليوم التالي وفي مطبخ الرجل العجوز كانت السمكة تنتظر تحقق هدف وجودها في أن تكون جزءاً من جزء الإله بينما أوقف هو دراجته بالقرب من بيت العجوز وانحنى للأرض يرفع وردةً جورية حمراء مقطوفةً للتو ملقاة في وسط الطريق وراح كعادته يضعها فوق سور الحديقة الخلفية لبيت الرجل العجوز، إنها المرة الثانية التي يجد فيها نفس الوردة بنفس المكان، في المرة الأولى كانت بعد انتقاله إلى هذه المدينة بأسبوع وكان قادماً من السوق بسيارته عبر الطريق الوحيد المؤدي إلى بيته وشاهدها وهي مستلقية في وسط الشارع كجنين حمامة سقط من عشه فأوقف سيارته وترجل والتقط الوردة الحمراء ووضعها فوق السور، إنه دائماً ما يعالج الحيرة بالإهمال، فهذه ثالث وردة يراها في طريقه منذ أن سكن هذه المدينة الصغيرة النائية منذ

شهرين بعد أن انتقل إليها هرباً من المدينة الكبيرة التي كانت تخيفه، يخيفه الضياع في دروبٍ لا يعرفها والناس الغرباء الكثيرون، لا بأس بالغرباء إن لم يتجاوز عددهم أصابع اليد.

كانت أنظار الجيران المليئة بالفضول تنتهامس مع دواخلها حول السبب الخفي لزيارة هذا الرجل الأسمر ذي الشعر الأسود صاحب الابتسامة المميزة إلى هذا العجوز الأصهب العابس ذي اللسان البذيء مع كل مَنْ ألقى عليه التحية أو حاول بعفوية التقرب منه وكسب وده.

- أحضر كانون الفحم من المستودع، ستجد كيساً من الفحم الحجري بداخله، وربما تجد النفط أيضاً، لكن حاول أن تلقي نظرة تحت الكانون فحتماً تجده هناك، بينما أحضر أنا كرسيين وطاولة، طالما تريد الجلوس في الهواء الطلق.

- وأين هو المستودع؟

- هذا الكوخ الصغير أمامك.

المستودع بدى مرتباً جداً عكس مستودعه الذي يشبه أفكاره، أفكاره المشوشة كحاوية القمامة - هكذا خطر له تصويرها - في زاوية الكوخ الأيمن قرب الزورق المطاطي الأحمر وجد الكانون الدائري ذي العجلتين، وبداخله كيس فحم حجري، كما أخبره العجوز، وقنينة نفط بلاستيكية سوداء اللون، راح يسحب الكانون ويضعه في وسط الحديقة على مقربة من الطاولة والكرسيين الذين أحضرهما العجوز وراح يأتي بسمكة السلمون التي فتحها العجوز من بطنها ووضع بداخلها توابل لا يعرفها، هو بالعادة يفتح السمكة من ظهرها كما كانت تفعل أمه وتضع عليها قليلاً من الملح وتشويها داخل التنور بدون أية توابل أو إضافات وكان مذاقها يشبه عطر سجدة في ليلة القدر وأبواب السماء مفتحة وملاك واقف ينادي:

- ألا من أمنية فأحققها؟

هو لم يرَ الملاك بعد ولم يسمع صوته، لكنه سمع من معلمه أنه يستطيع رؤيته إذا ما سجد بإخلاص في ليلة القدر

من منتصف الليل حتى الفجر، فراح يسجد كل ليلة قدر من منتصف الليل حتى الصباح ولا يأتي الملاك، في البداية فكر أنها ربما تكون ليلة القدر الخاطئة فراح يسجد في كل ليلة من الليالي العشر الأواخر من رمضان، لكن الملاك لم يأت، فراح يسجد كل ليالي شهر رمضان والملاك مازال مصراً على تجاهله إلى أن قرر قبل سنتين وبعد أن وصل إلى بلاد المنفى التي لم تجده قادراً على العمل فأعطته بيتاً وراتباً شهرياً وعلاجاً مجانياً ليكمل حياته بسلام، قرر أن يسجد سنة كاملة كل ليلة من منتصف الليل حتى الصباح كي يحاصر الملاك - وليلة القدر لا بد أن تكون إحدى ليالي السنة - وبعد أن أكمل سنة كاملة لم يحضر الملاك أيضاً فلم يستسلم ولم ينفِ وجود الملاك، لكنه قرر أن يواصل محاولته بالوصول إلى الشفافية التي تمكنه من رؤية الملاك.

قال للعجوز وهو يشعل الفحم:

- أرى أن لديك زورقاً.

– نعم، اشتريته منذ ثمان سنوات ولم أستخدمه كثيراً، ربما خمس أو ست مرات، كنتُ أذهب به إلى الجزيرة الصغيرة المهجورة التي كنا قبالتها في الليلة الماضية، وبعد أن لم أصطد ما كنت أعول عليه عند ساحلها لم أستخدمه من حينها، قبل فترة حاولت تشغيل المحرك لكنه لم يعمل بشكلٍ جيد لذلك أنا أفكر برميهِ في حاوية النفايات لكني لا أستطيع سحبه وحدي. إن كنت تنوي الاحتفاظ به فهو لك فأنت مازلت قوياً وتستطيع التجديف وخلال ساعتين تجد نفسك في الجزيرة حتى لو تعطل المحرك وإلا فأنا سأرميه بكل حال.

– يسعدني أن أحتفظ به.

– تستطيع أخذه بأي وقت، فقط اجلب عربة وخذه، تستطيع استئجار عربة من محطة البنزين القريبة.

– وهل الأسماك بالجزيرة تختلف عن الساحل حيث نلتقي؟

– لا تختلف كثيراً إلا أنها تكون أوفر وأكبر لندرة الصيادين الذين يذهبون إليها، فهي تستغرق تقريباً نصف ساعة

بزورق ذي محرك أما إذا أردت التجديف فلا يمكن الوصول إليها بأقل من ساعتين. حينما كنت صغيراً كان أبي يأخذني هناك وكان يخدعني ويقول لي إنه يوجد بها حوريات البحر. لكنها بالحقيقة كانت محمية طبيعة وقد أغلقت منذ 50 عاماً لصغرها ولجفاف بحيراتها الاصطناعية صيفاً ولتزايد أعداد الحيوانات، تم نقل الحيوانات إلى مكان أكبر وأوسع وبقيت الجزيرة مهجورة منذ ذلك الحين ولا يوجد بها شيء مميز حتى تستثمرها الدولة، آخر مرة رأيته منذ ثمان سنين وكانت مازالت تحتوي على غرف المركز البيطري الخشبية وغابات كثيفة من الأشجار تحيا على الثلج والمطر، وما إن يأتي الصيف حتى تجف من جديد وتعود للحياة بالشتاء على شكل حزنٍ صامت وخزان الماء الكبير مرمي على الأرض يأكله الصدأ.

– وهل هناك قانون يحرم التواجد هناك؟

– لا يوجد، بماذا تفكر؟

- أفكر أن أذهب إلى هناك، لكني ربما أغيب عن الواقع
كعادتي فيغادرني النهار وربما أستفيق بعد يومين،
ثلاثة أيام أو أسبوع، ولا أخفيك أحتاج مكاناً للتأمل
والاعتكاف أحياناً حينما لا يتبقى لدي سبب في ممارسة
الحياة.

- لا أعرف ما جدوى التأمل، لكن بالطبع تستطيع مع وجود
القارب الآن.

بعد الغداء أخذه العجوز إلى مكتبة زوجته، لقد كانت
بحق مكتبة، غرفة مستطيلة، جدرانها الأربعة تتنفس كتباً،
المكان الفارغ الوحيد فيها هو فتحة الباب فقط فالغرفة لم
تحتوِ على شبّاك لذلك كانت موبوءة برائحة الحروف، يكفيك
فقط أن تجلس على الكرسي الهزاز وسط الغرفة وتغلق
عينيك وتأخذ نفساً عميقاً لتغوص بلا حراك، تاركاً لروحك
مجبوراً حرية الارتطام بأمواج الحروف العظيمة وهي تخرج
على شكل جنيّات وآلهة ونساء وعشاق وقتلة وقوافل عبيد
ورجال دينٍ فجرة وضائعين وسكارى وجائعين وعابثين

وطيور وفراشات وأشجار وشعراء يصورون لك جمالاً من
وحي تعاستهم وملوكٍ يحاربون آخرين وأنبياء يحاولون رد
قطيع الله إليه وهو متوجة للشيطان.

أخرجه الرجل العجوز من صمته واستله من هيبة
المكان حينما قال له:

– كانت تجلس هنا طيلة الوقت تقرأ وتتأمل وتشتري الكتب
وتقرأ وتتأمل وتنام على كرسيها دون أن تفعل شيئاً
آخر وعندما أسألها عما بعد القراءة والتأمل كانت تقول
بأنها تنتظر إشارة ما كي تبدأ حياتها وأظنها ماتت ولم
تأتها الإشارة.

– حسب ظني إن أولئك الذين يبحثون عن إشارة ما من إله ما
حتى يبدؤوا باتباعها وتغيير مسار حياتهم، يعتقدون بأن
الإشارة هي أن ينزل الرب ويمسك بأيديهم ويضعهم
على الطريق، هم لا يعرفون طبيعة الله وبالتالي لا
يفهمون إشاراته. خلال تأملي وتتبعي للإنسان خلال
عبوره بين العوالم، من عالم إلى عالم، وجدت أن

الحياة برمتها عبارة عن إشارة تبدأ بحب وهي تمنحه
الحياة وتنتهي بحب وهي تسلب منه لباسه البالي وتدفنه
بالتراب وتهبه جسداً جديداً قادراً على عبور عالم آخر.
أول سنٍ ينبت في لثتك إشارة، أول سقطة تسقطها بعد
محاولتك الأولى للمشي إشارة، أول حمى تتعرض لها
إشارة، أول دمية تهدى إليك إشارة، أول عشق إشارة،
أول طفل ترزق به إشارة، أول حزن، أول جوع، أول
موت، كلها إشارات تخبرك بأن خالق هذا الكون يحبك
وسبب وجودك أنه أحبك فأوجدك، ويدعوك إلى حبه
بشتى الوسائل، بالأنبياء، بالعصافير التي تحط على
نافذتك، بحبة كرزٍ ناضجة، بتفاحة، بنسمة هواء باردة،
بضوء القمر، بتجلياته في حبيبتك، في أمك، فيك أنت،
لكننا لن نصل إلى تلك المحبة حتى نحب كل صنائعه،
وأجمل صنائعه هو الإنسان الذي ربما اختلفنا معه
وجعلناه عدواً.

حقد العجوز مطولاً بوجه صديقه العربي وقال له
بابتسامة ليس لها لون ولا طعم ولا رائحة ولا تشبه السراب:

- تبا، كم تشبه زوجتي.

- هل كانت سمراء؟

- أنت تعلم ما أقصد.

- نعم، اسمح لي بالمغادرة، سأذهب للسوق قليلاً، وأتركك
لترتاح. شكراً لهذه الظهيرة الرائعة وشكراً على
القارب.

- لا عليك.

العجوز لم يكن بالحقيقة يكره زوجته وربما كان يحبها
أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم، الآن فقط - بعد أن
رحل ضيفه - عرف أنه يحبها بعدما سمع كلام صديقه حول
الإشارات وقال مخاطباً نفسه:

- تبا، لقد أعجبني كلامه وأحببته.

شعر أن كلام زوجته عن التأمل والإشارات لم يكن
سيئاً، لكنها لم تكن تجيد التعبير كما يجيده صديقه العربي.

اليوم فقط أجاب عن السؤال الذي أتعبه: لماذا تعلق بهذا العربي؟ إنه نوعاً ما يذكره بدفء كلام زوجته رغم أنه لم يشعرها يوماً بذلك.

في طريق عودته من السوق توقف العربي قبل بيته بمسافة قريبة - على بعد بيتين من بيته - كانت إحدى جاراته أقامت سوقاً لبيع حاجياتها القديمة، خطر في باله كم هي شجاعة حيث أقدمت على هذه الخطوة، فهناك من لا يستطيع التخلص من عقدة الحنين لحاجياته القديمة حتى لو لم يستخدمها، تصبح هناك ألفة غريبة وعشق من نوع ما يزيدك حيرة بهذا المخلوق الذي يرتبط بجمادات بلا روح - هكذا يعتقد البعض - ويبقى مخلصاً لها لأنها شاركته بعض أوقاته ويرحل عن هذه الدنيا ويترك كل حاجياته للنيران أو للورثة الذين سيلقون بها إلى النيران بأية حال.

وجد بين الحاجيات المعروضة فانوساً نفطياً من الزمن الغابر لم يعد أحدٌ يستعمله، وأعجبه كذلك توأمان من شمعدان نحاسي مزخرف، كان يود في الحقيقة شراء كل الحاجيات

رغم أنه لا يعرف أكثرها، وكأن هناك روحاً ما كانت تسحبه بقوة للاتحاد مع هذه الحاجيات، لكنه وكعاداته يستطيع مقاومة رغباته النفسية بسحق قلبه بقدمين حديديتين ورثهما من معلمه الذي أشرف على وضعه في بداية طريق السفر للبحث عن حقيقة الأشياء بعدما كان غارقاً في وهم الوصول.

راح يسألها عن سبب هذا الثمن الزهيد الذي أخذته مقابل الشمعدانين النحاسيين ولم تأخذ شيئاً مقابل الفانوس النفطي العتيق:

- إنهما يساويان أضعاف، أضعاف هذا المبلغ، إنهما تحفة نادرة هذه الأيام وعمرهما يجعل سعرهما أعلى بكثير عما لو كانا جديدين.

- أنا لستُ بحاجة للمال يا عزيزي، أنا بحاجة للشعور بالاطمئنان على حاجياتي التي تحولت مع الزمن إلى جزء مني، أنا حينما أنظر الآن إلى هذين الشمعدانين لا أراهما شمعدانين بل يدي زوجي وهي تقترب وتشعل الشمع وتقترب أكثر وتحضنني وترسل خصري

للسماء وتتلقفني وتضميني إلى صدره من جديد، حينما أرى هذا الفانوس النفطي أرى وجه أُمي وهي تخبرني بأنني أجمل طفلة في العالم وأن الله خلقني لشعوره بالوحدة، كانت أُمي خالدة بخلود هذا الفانوس وربما لأنني أبحث عن الخلود قررت أن أبيعها إلى أناس مختلفين حتى أضمن لحاجياتي ولي استمرار الوجود لأطول فترة ممكنة.

لم يكن يدرك أن الشمعدانين هما مفتاحا خروجه من هذا العالم، ما أن وضعهما فوق حافة النافذة الخلفية للمطبخ المطل على أسفل التلة المنتهي للبحر حتى أدرك بأن هذه النافذة صممت لتكون بوابة العبور نحو العوالم الأخرى، طالما كان يشعر بأنها بوابة لشيء ما، لكنه لم يكن قد وجد مفتاحها بعد.

في المساءات وبعد أن يحتل الأرض السكون، يشعل شمع الشمعدانين ويجلس على الأرض ويبدأ التأمل.

دائماً ما كان يبحث عن مصدر كل هذا الجمال الصارخ
داخل رأسه، كل شيء حوله جميل، لكنه مازال جائعاً
للجمال، بل إن جوعه بازدياد كلما مرت ظبيّة من أمام
عينيه، كلما لامست خديه حبة ثلج، كلما ضحك طفل، كلما
ساعد إنسان، جوعه يدفعه إلى البحث عن كمال الجمال،
الجمال التام، الفراشة جميلة، لكن بطبيعة الحال اليد التي
صنعتها أجمل والعين التي تراقب العمل أجمل من الاثنين،
فكيف يا ترى يكون جمال قلب الصانع، وجه الصانع، روح
الصانع، كيف يكون يا ترى جمال الله؟

كل مرّة يغرق بالتأمل يرى العالم بعين مختلفة عن
المرّة السابقة، الوجود يتطور في داخله نحو التكامل، يرى
الكون كخطوات طفل يتعثّر، ثم يقف، ثم يسقط، ثم يمشي
خطوتين، ثم يقع، ثم يمشي مسرعاً خمس خطوات، ثم يقع
على مؤخرته، ثم ينهض، ثم يجري، هو يدرك بأن الوجود
كامل، وروحه هي من تتكامل في كل لحظة.

هذه المرة رأى العالم بعين فراشة، لقد توحد مع
الفراشة حتى شعر ببرد قدميها وهي تقف على رمش الورد
البيضاء المبللة بالندى، سمع دقات قلبها الصغير تلهث بلذة
سماوية بعيدة عن خيال الحالمين ومنال الواصفين، شعر
بدفء ضغط دمها الأرجواني في شرايينها الدقيقة يرتفع
وينخفض، وأحس بالريح تقبل إبطيها وهي ترفرف بأجنحتها
بغنج امرأة تضرب براحة كفها على يد حبيبها وهو يحاول
التحرش بنهديها، بدت حديقة بيته أكبر من المعتاد والطريق
نحو البحر بلا نهاية، وبدا البحر أوسع من إدراك الفراشة،
والجزيرة المهجورة بعيدة كالحلم.

مع عجز الفراشة عن الوصول إلى الجزيرة، راح
يتسوّر جسد نورسٍ عابرٍ ويزاحم روحه، فكان الكون أجمل
بعيون النورس الذي سكر بفعل خمر الروح التي سكنته،
أثقلته الروح المحملة بالجمال وشوق المعرفة فحط يستريح
على صخرة كبيرة وتساءل:

– كيف يا ترى تنظر الصخرة للعالم؟

- أجمل من غناء الوديان وجناح النسور ورضاب الباندا،
لكني لا أعلم كيف يكون الكون لو كنتُ شجرة؟

- الوجود كل الوجود على شكل شجرة، أجابت الشجرة،
برائحة الأوراق وطعم التفاح الأحمر ولون أوراق
الخريف .

في كلّ مرة يتكاثر العالم ويتسع ويكبر، فيغرق فيه، ولا
يجد طريق الخروج، ولم يصل بعد إلى حقيقة أن الفراشة هي
نفسها النورس، وهو نفسه الحجر، وهو نفسه الشجرة، وهي
نفسها الإنسان، وهو نفسه الله.

لم يخرج من تأملاته غير صديقه العجوز وهو يطرق
باب البيت بشدة، وينادي عليه بصوتٍ مرتفع، فراح يتوكأ
على أثاث بيته كي يصل إلى الباب.

بدا مصفراً، شاحباً، ضعيفاً، يرتعش كالمصاب
بالحمى، أعتذر له العجوز الذي حسبه مريضاً على تصرفه
الفج الذي بدر منه بدافع القلق، فقد مرّت أربعة أيامٍ لم يرَ فيها
صديقه العربي وها هو يأتي إليه بالقارب بعد أن وضعه على

عربةٍ قديمةٍ وجدها عند صديقٍ له لم يكن بحاجة إليها فأحضرها مع القارب لصديقه العربي كي يوفر عليه ثمن إيجار عربة أو شراء عربة لأن هذه القديمة تفي بالغرض تماماً.

بعدما رحل العجوز وعاد إليه وعيه تذكر أنه جلس يتأمل منذ أربعة أيام ولم يأكل شيئاً ولم يشرب ولم ينم ولم يقض حاجته البشرية، وبالمقابل فإن جسمه المادي بدا ضعيفاً وعلى حافة التلف لو لم يتدخل بالصدفة وينقذه صديقه العجوز، راح يستذكر كلام معلمه عن أحاديث العاشقين وعن الحب، أخبره مرة أن النبي موسى بن عمران ذهب للقاء الله ماشياً أربعين يوماً وليلة، لم يشرب، ولم يأكل، ولم ينم، ولم يسترح، لكنه وصل بحالة جيدة، وكأنه أكل للتو بعدما أفاق من نوم ليلة طويلة، وعندما خاطبه محبوبه:

— ما هذا الذي فعلته يا موسى؟

فقال :

- عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى، لا تلمني فحبك هدني، هدّ مشيئتي واستبدل بها مشيئتك، لم يترك لي الشوق وقتاً أنظر فيه لرغبات جسدي البشري، لكنه هو الآخر تغذى على عشقك فأينع.

ويكمل معلمه، بأنه يُصدّق هذا الحديث ويرجوه أن يصدقه وألا يلتفت لرغبات جسده ويسير باحثاً عن رغبات الروح .

راح يتمتم وهو يبحث عن شيء يأكله :

- ومن أين لي بقلب كقلب بن عمران.

الجزيرة المهجورة

من خلال النافذة المطلّة على فناء البيت، شاهد القارب غافياً على وسادة العربة، لم تكن عربةً قديمةً جداً، فلونها الرصاصي مازال فاتناً ومازالت أضواءها الخلفية سليمة، كل ما عليه الآن هو ربطها إلى مؤخرة سيارته والسير بها نحو البحر وتجربة الصيد بعيداً عن الساحل، لكنه تذكر أن عليه أن يصلح محرك الزورق أولاً وإلا فعليه الاستعانة بيديه وراح يقلب كفيه ويخبرهما أن عليهما أن يعملأ أكثر ويدفعا له ضريبة الرخاء الطويل الذي منحه لهما في السنين الأخيرة.

مرت أيام كثيرة مكررة كالصورة وانعكاسها في المرأة، الدراجة الصاعدة، النازلة من وإلى البحر، النازلة، الصاعدة من وإلى الكوخ أعلى التلة، ذات الطعم وذات السمك، نفس الوجوه التي تقول صباح الخير ومساء الخير، نفس الوردة الجورية الحمراء الملقاة وسط الطريق، ما عدا

رحيل العجوز قبل ثلاثة أيام إلى بلدٍ آخر لبيع منزل العطلات
الصيفية الذي لم يعد بحاجة له.

إنه الوقت المناسب للسفر، إنه يعرف الوقت المناسب
للسفر دائماً عندما لا يجد ما يفعله غير التكرار، راح يتفحص
محرك القارب وجده يعمل بشكل جيد، لا ينقصه سوى شراء
بضع ليتراتٍ إضافية من البنزين من المحطة القريبة وهناك
دخل إلى السوبر ماركت القريب من المحطة وراح يشتري
بسكويت وعصائر طويلة الأجل وبعض الطعام المعلب
وثلاث زجاجات كبيرة من القهوة وعلبة كارتونية كاملة من
قناني المياه المعدنية الصغيرة وكثير من علب السجائر
الحمراء، وتوجه من هناك إلى البحر وأوقف سيارته بالقرب
من الساحل وراح يجر القارب أولاً ومن ثم جلب المحرك
وربطه بالقارب، وراح يُحكم قفل أبواب سيارته، ويتأكد من
إقفالها بعد أن نقل كلّ حاجياته إلى القارب، وتأكد
بالخصوص من معدات الصيد، فكثيراً ما صار ينسى بعضها
هنا وهناك.

أدار المحرك، فاستجاب له من أول سحبة، وراح يسير
باتجاه الجزيرة المهجورة، أحس بشعور رائع وهو يرى
القارب يفتح ظهر البحر كعاشقٍ يفتح مظروف رسالة غرامٍ
وصلت إليه للتو من محبوبته بعد انتظارٍ طويل. الأمواج
الخارجة من مسير القارب كانت على شكل ابتسامة طويلة،
حتى صوت محرك القارب بدا كنغمةٍ بدائيةٍ يعزفها صياد
غزلان محترف وهو يلهث مسرعاً خلف غزالٍ شارٍدٍ بقدميه
الحافيتين وجسمه نصف العاري في غابةٍ بعيدة في خاطرة
الزمن القديم.

بدت الجزيرة على مقربة من عودة كلب رمى له
صاحبه عصاً وراح يعود بها مزهواً يحمله الغرور بقدرة
التتبع التي لا يجيدها سواه.

الوقت مازال ظهراً والجزيرة قريبة، لكن المحرك
توقف عن الغناء ولم يخرج من صمته محاولاته المتتابعة
البائسة في السحب وتفكيك ما يستطيع تفكيكه من أحشائه
وتنظيفه بالنفخ تارة وبالغسل بالبنزين تارة أخرى حتى وصل

إلى قناعة بأن المحرك لن يدور، وعليه إن أراد الوصول إلى الجزيرة الاستعانة بيديه والمجادفين الخشبيين اللذين يتوقان لهزيمة المحرك.

راح يجدف مطمئناً مستسلماً راضياً وبدون أن تظهر عليه أية علامة للجزع أو الغضب، لأنه يعتقد بأن هناك مُدبّرًا ما لكل جزئيات هذا الكون، وله بكل حدثٍ مهما كان بسيطاً أو عارضاً حكمة ما، حتى وإن كان الإنسان يجهلها إلا أنها ستصب في مصلحته بالنهاية، لأن هذا المُدبّر خيرٌ محض وحبٌ محض، تذكر وهو يجدف تلك القصة التي رواها له معلمه عن ذلك العارف الذي كان معتاداً للذهاب كل ليلة أربعاء إلى مسجد الكوفة يحيي الليلة بالتأمل والصلاة، وكان معتاداً أن يمرّ بطريقه بالبقال ذاته الذي يعرف طلبه جيداً كلّ ليلة أربعاء ويحضره له حتى قبل وصوله، مائة غرام من ورق الشاي تساعد على السهر ويحمل معه إبريق شاي نحاسي صغير، وهناك كثيرون من يشعلون النار في ساحة المسجد ويجلسون يتحدثون ويتسامرون ويتناقشون ويسمعون قصص العابدين والأولياء وكراماتهم ويتعلمون

من بعضهم البعض ويساعدون بعضهم البعض. راح العارف يفتح على غير عادته كيس الشاي بعد أن أخذه من البقال ودفع له ثمنه فوجده مائة غرام من التبغ المستخدم في الغليونات الفخارية القديمة قبل استخدام الزجاج، وهي عبارة عن فخارية حجرية في الأسفل يكون بداخلها قليل من الماء تسد فوهتها بساق خشبية تحمل في رأسها مكاناً صغيراً للتبغ الذي يحترق تحت الفحم المشتعل وفي أسفل الساق بالقرب من الفخارية تكون هناك فتحة توضع بها قطعة خشبية مجوفة لسحب الدخان من رأس الغليون بعد مروره بالماء، لم يستغرب ذلك العارف من الأمر لأنه يعتقد أن لكل شيء حكمة حتى هفوة البقال هذه، فعاد إلى البقال مرة أخرى وطلب مائة غرام ثانية من ورق الشاي وأخذها وتوجه إلى مسجد الكوفة وفي بوابة المسجد وجد درويشاً صوفياً وهو يخاطب الله بصوتٍ مسموع:

- يا رب لقد فعلت ما بوسعي، أشعلت الفحم ونظفت غليونني وهو جاهز للاستخدام ولم يبق سوى التبغ الذي أريدك أن ترسله لي لأنني لا أملك ثمنه.

فما كان من ذلك العارف إلا أن مد يده في جيبه وأخرج
كيس التبغ وأعطاه للدرويش قائلاً:

– ها هو التبغ الذي أرسله لك الله يا رفيقي.

لمح من بعيد مرسى خشبياً قديماً على الساحل، فراح
يجدف نحوه وهو يتغنى بأبياتٍ شعرية للحلاج:

والله ما طلعت شمس ولا غربت.. إلا وحبك مقرون بأنفاسي

ولا جلستُ إلى قومٍ أحدثهم.. إلا وأنت حديثي بين جلاسي

ولا هممتُ بشربِ الماء من عطشٍ.. إلا رأيتُ خيالاً منك في الكأسِ

ولو قدرتُ على الإتيانِ جنتكم.. سعيّاً على الوجه أو مشياً على الراسِ

ما لي وللناس كم يلحونني سفهاً.. ديني لنفسي ودين الناس للناس

ربط القارب عند الرصيف الخشبي ونزل مسرعاً، ثم

راح يمشي بحذر بعدما شاهد بعض أخشاب الرصيف بحالة

يرثى لها وهي مهترئة، متآكلة ولا تبعث على الاطمئنان،

وما إن وضع قدميه على رمل الساحل حتى عاد إلى القارب

من جديد يهزُّ برأسه ويهزأ بنسيانه وانشغال خاطره وأخذ

حقيبة ظهره المتوسطة الحجم التي جمع فيها أكثر

ضرورياته إلحاحاً وترك أدوات الصيد ومعداته وحاجيات أخرى سيعود إليها لاحقاً بعد جولة الاستكشاف التي يتوق إليها.

لم تزل حماسته على استكشاف الجديد طاغية على فطرته، بالرغم من وصوله إلى منتصف العقد الرابع من العمر والعقد الثاني من السير على الدرب المؤدي إلى قلب الكون.

لم يسر أكثر من ساعة وسط غابة من الأشجار المملة المتشابهة المكررة والأحراش المتطفلة التي راحت تمد سيقانها بكل مكان حتى بدت له الجزيرة خالية من أي روح حية، أدرك بأنه وصل إلى وسط الجزيرة كما أخبره صديقه العجوز عندما وصل إلى البيت الخشبي الكبير المطل على البحيرة وخزان الماء الحديدي الصدى العملاق المرمي بفعل عوامل الزمن والطبيعة على الأرض، دخل البيت وكان مقسماً إلى غرف على الجانبين يفصل بينهما ممر طولي وبدا واضحاً كمية الخراب الذي لحقه، وكانت الشرفة الخشبية

المطلة على البحيرة خطرة جداً ولم يدر في خلد هذه المرة حتى مجرد تجربة الوقوف عليها بالرغم من المنظر المهيّب المغربي، لكنه لمح كوخاً صغيراً في الطرف الآخر من البحيرة فراح يلتفت حول البحيرة حتى وصل إلى الكوخ.

كان كوخاً صغيراً من غرفة واحدة وشرفة واسعة صلبة تطفو على سطح البحيرة لمسافة مترين، لم تنزل أرضية الكوخ متماسكة والشباك الزجاجي الوحيد المطل على البحيرة من خلال الشرفة سالماً ذا دكة عريضة يقف عليها تمثال حجري لبوذا ربما كان يمثل شيئاً ما لسكان هذا الكوخ، الباب الرئيسي لم يعد موجوداً، أما باب الشرفة الملاصق للشباك فقد انتفخ بفعل الرطوبة وتسمرت مفاصله الحديدية الثلاثة التي تربطه بالحائط، وتوقف حزيناً في منتصف المسافة بين الشرفة والحائط فلا هو مغلق ولا هو مفتوح تماماً كالنفس التي توقفت عن البحث وماتت حائرة بين المواصلة والرجوع، تلك المرحلة تكون أصعب مرحلة في حياة أي إنسان عندما يقف في المنتصف بين أن يرفع قدمه ويواصل وبين أن يدير ظهره ويرجع، تلك المرحلة

التي يشعر فيها بالتعب من جدوى مواصلة البحث عن إسكات صرخات روحه المطالبة بالحرية والانعتاق والمعرفة بعد عدة محاولات فاشلة ونكسات متتابة وظهور حقيقة المعلمين الكذبة وضياع العمر بالجري خلف أوهامهم المريضة وتقريع المحيطين به، خصوصاً إن كان مسؤولاً عن تلبية رغبات عائلة ليس لها غيره ربّاً، يقف كباب الكوخ في المنتصف ويفكر بالعودة للوراء، للراحة قبل المسير، للجماد قبل ظهور نبضٍ مجهول، ولأن الرجوع ليس من طبيعة المادة ولا من طبيعة الروح، فإنه يبقى عالقاً في المنتصف ويموت في تلك المسافة تماماً كباب الكوخ.

أنزل حقيبته داخل الكوخ، وفصل حقيبة خيمته الصغيرة من الجزء الأسفل من الحقيبة أولاً ووضعها على الشرفة، وعاد وأخرج الشمعدانين ووضعهما على الجهة اليمنى واليسرى لتمثال بوذا وملاهما بالشموع، وترك كيس نومه من غير أن يفتحه مستنداً بشكلٍ مائل على حائط الكوخ، وراح راجعاً إلى الزورق كي يحضر عدة صيده، فربما

كانت البحيرة مازالت تحتوي على سمكٍ من نوع ما، وربما كان كبيراً لعدم مرور الصيادين من هنا دائماً.

في طريق عودته من القارب وهو يحمل عدة صيده وكرتونة الماء، كان هناك في داخل رأسه الذي لا يسكن أبداً شيء ما لا يفهمه، لم الجزيرة خالية من روح تتحرك وهذا موسم هجرة الطيور وهي تحط بكل مكان، أم أن بوصلة الطيور لا تشير نحو هذه الجزيرة؟

على شرفة الكوخ نصب خيمته الصغيرة ووضع بداخلها كيس نومه وعلبتين من علب السجائر وقنينة ماءٍ صغيرة وراح يجرب الصيد بعدة طرق، بالطعم وبدونه، بالطوافة وبالفراشة وبالذبابة وبترك الخيط عائماً فترة وبالسحب المتتابع فترة، لكن البحيرة خالية تماماً من أية حركة تدل على أنها مازالت تحتفظ بسمكة واحدة.

ترك صنارتيه في الماء، وراح يجمع الحطب مع الغروب استعداداً لعمل وجبة الفطور بعد يوم صياحٍ طويل، تعود أن يبدأ فطوره بفنجانٍ قهوة وسيجارة، وبعد الصلاة

يأكل شيئاً بسيطاً يحبه، في بداية سيره في هذا الطريق الروحاني تعرف على معلمٍ كذاب كان ينصحه بالصيام والإفطار بالماء فقط حتى شارف على الهلاك ولم يعد يقوى على التأمل والصلاة من شدة الجوع حتى التقى بمعلمه فجأة عندما ارتطم به في زحام السوق وكان يرتجف من الضعف فأوقفه ذلك الرجل الكبير صاحب الابتسامة الساحرة قائلاً:

- ما هكذا تورد الإبل ولا هكذا يقطع السائرون الفيافي الطويلة والوديان العميقة.

ودعاه إلى مطعم شعبي وسط الطريق وطلب له "جلو كباب" سيخين كبيرين مشويين من لحم الغنم المفروم يوضعان أسفل الطبق ويوضع فوقهما الرز وفوق الرز يزين الطبق بقطعة صغيرة من الزبدة، وأوصاه بأن الجسد البشري له متطلباته أيضاً وعليه مراقبتها، فدوام الجسد البشري في هذا العالم بالطعام الذي تأكله والمراقبة تكون بكمية الطعام الذي يحتاجه للبقاء، فلا تزيد من كمية الطعام كي لا تثقل عليه وظيفته ويصبح الجسد مقبرة للحيوانات والأشجار

والخضروات، والروح تجزع من مرافقة مقبرة متنقلة، أما الماء فأكثر منه ما استطعت لأنه خلق من نور الله مباشرة بلا واسطة، وهنا تكمن العلة بالوضوء فالله يريد منك أن تغترف النور بكلتا يديك وتغسل به وجهك ويديك، النور يسري مع ماء الوضوء فيدخل منخريك وفمك ويلامس لسانك ويعبر من على عينيك وحول أذنيك وعلى يديك وقدميك فما أن تقف للصلاة حتى تبصر الله بنور الله بعينك وتسمع الله بنور الله في أذنيك وتخاطب الله بنور الله في لسانك وتقف على عرش الله في نور الله في قدميك وتسلم على الله وأنبيائه وأوليائه بنور الله في يديك.

لقد جعل الله من الماء دليلاً إليه وطريقاً يربطك به ويعود بك إليه بعد الانصراف إلى بشريتك، حتى غسل الجنابة هو باب آخر من أبواب الرحمة التي يفتحها لك الله بعد غوصك حتى السكر في لذة بشرية يتشارك بها روحك مع جسدك ويبتعدان عن الله في لحظات استقلال تام عنه، يتبادل فيها الجسدان العاريان دور العابد والمعبود وللعودة

إلى الله عليهما أن يغوصا بكل ذرات جسديهما بنور الله الذي
تراه أعيننا البشرية بشكل ماء.

مع أول ثانية لك في هذا العالم يغسلونك بنور الله كي
تبقى ملتصقاً ولا تباعد عن الله وبآخر ثانية لك في هذا العالم
يغسلونك بنور الله كي لا تنتهي في العوالم الأخرى وتبقى
ملتصقاً بالله.

أشعل النار بالقرب من باب الكوخ الأمامي لأن الشرفة
خشبية ولا يستطيع إشعال النار هناك، لكن عينيه مازالتا
على طوافة صنارته الفسفورية الصامتة، وبعد أن غلا الماء
راح يعد القهوة، وكم كان بوده لو أن سمكة ما ترق لحاله
وتهب نفسها له هذه الليلة مادامت النار مشتعلة.

جلس قرب النار وأشعل سيجارة وراح يرتشف القهوة
جرعةً بعد جرعةٍ ويبالغ في إخراج صوت الارتشاف، في
محاولة لكسر صمت عينيه وهي تراقب رحيل البحيرة نحو
قلب المساء.

ظلامٌ حالك وقور في ليلة بلا قمر ولا نقيق ضفادع ولا
صوت سيارات ولا أنفاس امرأة، إنها فراغ تام لولا صوت
هسيس النار وشهيق وزفير رجل أربعيني وحيد.

أخذ فنجانه بيده ودخل الكوخ، وأشعل شمع الشمعدانين
وتقدم نحو الشرفة وراح يراقب نقطة ضوء في طرف
البحيرة البعيد، أصبحت نقطتين، ثلاث، تجمعت على شكل
جناح، صارت أكبر، انتشرت في كل أرجاء البحيرة،
أضاءت المكان حتى وصلت إلى الشرفة، فتح فاه حتى أقصاه
من جمال هذه اليراعات، إنها المرة الوحيدة بحياته التي يرى
فيها هذه الكمية من اليراعات، هل هذا غزال هناك يقترب
من البحيرة؟ نعم إنهما غزالان، لا، ثلاثة، لا.. لا، أكثر،
قطيعٌ من الجاموس البري، حماران وحشيان أسفل الشجرة
على يمين البحيرة فوقهما قردان يأكلان التفاح فوق الشجرة،
الشجر لم يعد خالياً، ببغاوات حطت على الأشجار، عصافير
كناري، زراير، حماماتٍ رمادية، بيضاء، لقالق وبجعات
نزلت نحو البحيرة، نعامة أخرجت رأسها من الأرض
القريبة من الشرفة ونظرت إليه، البحيرة تتحرك، يقفز منها

أسراب من سمك السلمون، وتمتلئ بالسمك الملون، الأبيض
المرقط باللون الوردي، الوردي الكامل، سمك الزينة ذو
العيون الكبيرة، صاح بهستيريا:
- ها..ها..

وهو يرى خطين من الدلافين تقفز نحو بعضها وتتبادل
المكان وتلهو بعيدا وتردد صوتها المحبوب إياه الذي سمعه
في تلك المرة الوحيدة التي كان بها في السيرك، صرخ
بصوتٍ أعلى:

- لا .. لا .. لا يمكن ذلك، هذا مستحيل .. لا .. لا..

حصانٌ أسود بخصلة شعرٍ طويلة وذيلٍ كمناديل الوداع
الحريرية يصطحبُ مهراً أبيض بلون أول سنٍ لبني لرضيع
وهما يمشيان على سطح ماء البحيرة من جهتها اليسرى
يتوجهان للجهة اليمنى، ثم يقابلهما فهدان مرقطان بأقصى
سرعة يجريان على الماء من الجهة المعاكسة ويعبران للجهة
الأخرى، أسودٌ اقتربت من قطيع الغزلان وراحت تلعب
معهما.

سقط فنجان القهوة من يده وعينيه مسمرة على تلك
الحورية ذات الشعر الأشقر والذيل الذهبي تشق الأسماك
والحيوانات والطيور وتقبل إليه وتمد يدها إليه، فيجذبها بلا
وعي فينقسم ذيلها إلى قدمٍ يمنى تضعها على الشرفة وتتبعها
بالقدم اليسرى وتقف أمامه عارية كالوجود.

راح مسرعاً يفلّي حقييته بارتباك ويخرج حاجياته
بسرعة وهو يدير لها ظهره فبادرت قائلة:

- هل أستطيع أن أسألك عما تبحث؟

- أبحث لك عن شيءٍ ما يستر عراك.

- عجيبٌ أمرُك أيها المعلم الكامل، ألا تعلم أن

باستطاعتي ارتداء أي جسمٍ وأي ثوب أريد؟

- لم أكن أعلم ذلك، وبالمناسبة أنا لست معلماً.

حين أدار وجهه وجدها تلبس ثوباً مغربياً طويلاً رُماني

اللون، موشح بدانتيل أبيض وفيه بعض الزهور الوردية

الفاتحة وقد رمت بغطاء الرأس خلف ظهرها وتركت

لشعرها حرية اللعب في فضاء المساء.

- لا بد أن تكون روح وليّ أو روح نبيّ إذاً؟
- ولست بروح، أنا مجرد صياد أتيت إلى هذه البحيرة بحثاً عن سمكة كبيرة وأختلي بنفسي قليلاً بعيد عن كثرة العالم وكلّ ظني أنني أحلم الآن.
- أتحاول أن توهمني بأنك مازلت على قيد الحياة في هذا العالم المادي ولم تعبر بعد إلى عالم الأرواح وأن جسدك هذا هو الجسد المتعب ذاته الذي كان عندي قبل أربعة آلاف عام؟ لا تجعلني في حيرة أكثر، فأنا آتي هنا من زمن بعيد، أبعد من عمر الإنسان الأرضي ولم ألتق يوماً بإنسان مازال يسير في هذا العالم يستطيع أن يراني ويرى كل هذه الأرواح العابرة الباحثة عن رؤية أخرى للجمال بعين مخلوقات أخرى لم تجرب الحياة بأجسادها هذه.
- لحظة، دعينا نعيد ترتيب الأشياء من جديد، لنجلس أولاً، فلم أعد قادراً على التركيز، وامنحيني بعض

الوقت كي أعيد تركيب الصور المتداخلة في رأسي
وسنصل بالنهاية إلى فهم بعضنا البعض.

جلسا قرب الخيمة، وراح هو يبحث عن قداخته
البلاستيكية الحمراء بعد أن وضع سيجارةً في فمه، لم يجد
القداحة، تناول إبريق القهوة وأشار لها برأسه أن يصبّ لها
قدحاً فابتسمت وألمحت له بالرفض، فصبّ له قدحاً ووضعها
بينهما، وراح واقفاً، ثم تمشى صوب النار بعدما وقف لحظة
قصيرة نظر بها نحو الظباء التي تجمعت داخل الكوخ
وعينيها مشدودة على ضوء شموع الشمعدانين، ثم أكمل
مسيره نحو النار وأشعل سيجارته، وفي طريق العودة لمح
قداخته الحمراء على الرف بجانب تمثال المبجل بوذا
فوضعها في جيبه وعاد إلى الشرفة فلم يجد المرأة. راح
يتمشى ببطء حتى نهاية الشرفة بحثاً عنها، لكن الظلام أصبح
كثيفاً بعدما رحلت اليرقات وهدأت البحيرة والأشجار فعاد
إلى الكوخ فوجده فارغاً، راح يدور حول البحيرة فلم يرَ شيئاً
يدل على أثر للحياة وعادت الجزيرة مهجورة.

راح يُلقي بحطبٍ جديدٍ إلى النار القديمة ويبيكي، أدرك أن أمنيته قد تحققت فهو تمنى أثناء إشعال سيجارته بأن يرجع إلى الشرفة ولا يجد شيئاً مما كان، هو يعتقد بأن الوقت لم يحن بعد للتجرد، التطورات الأخيرة المتسارعة في سيره بدرب العشق أصبحت تخيفه، يتمنى لو أن معلمه معه حتى يرشده، يعتقد بأنه مازال طفلاً قليل الخبرة وبحاجة إلى مرشدٍ في هذا الطريق المليء بالمفاجآت، لم يدرك بعد بأن الله طفلٌ يرضى بالقليل ولا يزعل ولا يحقد ولا يحزن ولا يعرف الكراهية ويعشق كل الناس، منذ أن رأى أول براعةٍ شَعَرَ بأنه داخل لحظة جذب، وتمنى لو أنه يرى الله مجرداً وليس متجلياً في يراعاتٍ وغزلانٍ وحوريات ودلافين ونار، هو لم يسر في درب العشق ليصل لغير الله في النهاية، وكما يقول معلمه:

- من الخسارة التي تورث الندم الحارق أن تعبد الله جاهلاً فيعلم جهلك ويشفق عليك لأنه صاحب القلب الأطيب في الوجود والغني الأوحد والكريم حد الدهشة، ببساطة سيمنحك ما عبدته من أجله، فإن

عبدته خوفاً من بطشه وناره كما يعتقد العبيد فإنه
يكافئك على حسب قدرة إدراكك كما يكافئ العبيد
حين يُبعد عنهم سيدهم خوفهم منه ويظهر لهم وجه
الرضا، الله لا يحرق أحداً وكيف يحترق الناس وهم
يتركون المادة في هذا العالم ويلبسون الخلود الأول
والخلود لا يحترق، وما النار إلا نار بُعد الحبيب
ونار صدّ الحبيب ونار إهمال الحبيب، وهل هناك
نارٌ أعظم من نار احتجاب الحبيب عن عين حبيبه
احتجاباً تاماً من غير أن تراه أو تسمعه أو تشم
عطره.

وإن كنت تعبه طمعاً بالملذات الخالدة، فسيبني
لوجودك الخالد قصراً ولعينيك أنهاراً وبساتين
ولروحك حور عين، لكنك لن تكون بنظره غير
تاجرٍ ما أبدل بضاعته بثمنٍ ما وذهب في حال
سبيله، وهذا بطبيعة الحال أمرٌ محزنٌ حتى وأنت
على عرش قصرك في الجنة وحولك كل الملذات

فستشعر بالعار بعد أن تنازلت عن ربوبيتك
وارتضيت أن تكون عبداً.

أما العارفين فإنهم لا يعبدون الله بل يعشقونه،
يريدونه هو، فيكون هو الجائزة، ولك أنت أن
تتصور الفرق بين من يكون جائزته حورية وبين
من يكون جائزته الله.

تذكر كلامي فأنا أيضاً مسافر وربما لا نعود نلتقي،
سيعترض طريقك الكثير من قطاع الطرق، وليس
بالضرورة أن يكونوا على شكل قراصنة أو رجالٍ
أشرار أو حتى الشياطين، ربما جاؤوك على هيئة
أقرباء، أصحاب، رجال دين مرابين، مدعين ولاية
الله، فلاسفة كذابين، كلهم عثرات في طريق
الوصول، لكن أكبر عثرة وأعظم حجاب هو أنت،
فإياك وأنت وإياك وأنت، لا ترضى بغير الله ولا
تقف بمسكنٍ واحدٍ أبداً، ستعبر منازل كثيرة، ستجد
مغريات لا عدّها ولا حصر، لا تقف، لا تلتفت

حتى، سارع في العبور قبل أن يلتصق قلبك
بالمنازل وبساكني المنازل

بكى لأن قلبه أضعف من جمال امرأة الشرفة وأرق من
اليراعات وأنقى من البقع السوداء على جلد الفهد الطائر فوق
سطح البحيرة، قلبه أضعف حتى من قول كلمة "لا" لفنجان
قهوة ولرشفة سيجارة، لكن مطلبه عظيم، والعظماء أيضاً
يكونون، وبكاؤهم يزيد من عزيمتهم وإصرارهم على
الوصول إلى أهدافهم مهما كانت بعيدة، هو يعرف الطريق
جيداً، لكنه مازال يجهل الوسيلة، يعلم أن أسرع الطرق إلى
الله هي الصلاة - مع أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق
- كل المخلوقات المسافرة إلى الله ستصل بالنهاية لأن كل
الطرق تؤدي إلى الله.

المبجل بوذا سيصل بأتباعه حتماً إلى الله وكذلك موسى
وأتباعه، وسيعبر يحيى بأتباعه الفياقي الموحشة بالطريق
إلى الله ويسوع سيقود أتباعه بحب إلى الله وسيصل بلا شك
محمد بأتباعه إلى الله، سيصل الهنود الحمر تقودهم أرواح

آبائهم إلى الله، وحتى أولئك العراة في أفريقيا سيعبرون
الدرب إلى الله على قرع الطبول وصوت أقدامهم ورماح
صيدهم وهم يؤدون الرقصات البدائية الجميلة، الفن يوصلنا
إلى الله والموسيقى والشعر وكل طرق الجمال ستساعدنا في
قطع الطريق نحو الله، البشرية كلها ستصل بالنهاية بالرغم
من قصر المسافة أو بعدها وطول الطريق ووعورتها
والتفافها وتفرعاتها وبساطتها وتعقيداتها، نحن بحاجة فقط
إلى السكينة والأمان والسلام الروحي، وهذا لا يتحقق إلا
بالسلام مع الآخرين.

وضع يديه داخل النار كي يحول مسرى النار من قلبه
إلى يده، لكن النار كادت تحترق من قوة نار الشوق التي
تحتله حتى آخر ذرة في عينيه، أين المهرب من كل هذا
الحب الذي ما عاد لقلب صغير أن يحتمله، هل هناك مكان
للهرب من الله غير الله نفسه، وقف على قدم من خوف التيه
عن الطريق وقدم أخرى من رجاء الوصول، ووجه وجه قلبه
نحو قبلة الوجود الأوحده وصاح:

- إياك نعبد، وفقط إياك أريد يا حبيبي وحبيب
المغلوبين على قلوبهم، الحزاني من فرط شوقهم،
الثكالي من عظيم بُعدهم، الساهرون بانتظار إشراق
شمسك، السكاري بخمرة جمالك، الموتى الأحياء
على أمل أن يحييهم ابتسامتك، فأنت الغاية من
وجود الوجود وإياك نستعين بالصبر عنك ومنك
وبك، فقط بك نستعين بالقدرة على رجوع النور إلى
النور، ثم ترك مقام التدلي إلى مقام قاب قوسين -
دنى فتدلى فكان قاب قوسين - دخل مقام الركوع
ووشوش في أذن الله :

يا رب إني فقير من المعرفة، ضعيف من الأوهام
والخواطر والضياع، رقيق أمام الجمال، حتى
الزجاج أقوى من قلبي فهو لا ينكسر لرؤية فراشة
وقلبي يتشظى ألف قطعة عندما أرى خنزيراً يرضع
من خنزيرة وأهيم كطفل يتسول في إشارات المرور
فكيف بي والطريق إليك عظيمة، سبحانك لا عظيم
سواك فارق بي بحمدك...

فوشوش الله في أذنه:

– سمع الله لمن حمده

وأذن له في ترك مقام (قاب قوسين) والدخول في مقام (أو أدنى) لتتم الرحلة من الله وإلى الله بعين الله – دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى - دخل إلى السجود بعدما أغمض عين قلبه عن كل الوجود، ونفى كل وجود غير الله، وترك نفسه بالقرب من النار التي أشعلها على ضفاف البحيرة، ودخل وحيداً بلا عينٍ وفم وبلا جسد وروح.

لا شيء يقال في هذا المقام، بعضهم صعقوا وماتوا وعادوا إلى موطن أرواحهم الأصلي، وبعضهم تسمروا أبد الدهر مشدوهين بجمالٍ وجلالٍ ما وخرجوا من حسابات الزمن والوقت والمكان والنسيان والذكر، أما الخارجين منه فقد أصابهم الخرس ولم يخبرونا بشيء، ربما أمروا بعدم الإفصاح وربما لم يتوصلوا بعد إلى طريقة لإخبارنا، ربما مازالوا يبحثون عن لغةٍ ما لها القدرة على تقريب ما هناك إلى هنا، ربما ينتظرون أن تصل مداركنا للاستيعاب، ربما

وربما وربما، لكنهم بشكل عام بعد العودة لم يعودوا كما كانوا، لم يعد بوذا ذلك الشاب النبيل المدلل سندهارتا بن سدهودانا ملك سفوح الهيمالايا، وعاد إبراهيم خليلاً لله، وعاد موسى كليماً لله، وعاد عيسى روحاً لله، وعاد محمد حبيباً لله، وعاد الصياد بعد ثلاثة أيام وما يرى شيئاً إلا ويرى الله قبله وبعده ومعه، ورأى المرأة مازالت تجلس على شرفة الكوخ أعلى البحيرة.

العبارة

راحت تقترب منه وجلست على جذع شجرة قريب

وقالت:

- لماذا طردتني؟
- لأنك أجمل مما يحتمل قلبي.
- ولماذا لم تطرد نفسك وأنت أجمل؟
- لقد طردتها هي الأخرى وياليتني فعلتُ مذ عرفت أنها حجابي الأكبر، لكن لا بأس، فكلُّ شيءٍ بقدر.
- أنت تبدو شاحباً جداً وهذه البحيرة خالية من الأسماك هل تريد أن أحضر لك شيئاً لتأكله فأنا أستطيع الغوص في البحر وإحضار أي سمكة تشتهي؟
- القدرة على التحكم بالعالم لا تعني أن نعبث به ونتجاوز الأسباب ما دمنا نعيش مع غيرنا ممن يتعلق بالأسباب، سأخذ صنارتي وسأذهب للساحل وتستطيعين مرافقتي أيتها العجوز الأرضية الصبية

الروحية، وهناك نحتكم إلى مشيئة السمك ومن لديها
الجرأة على الخروج من عالمها ورؤية العالم بعين
إنسان، وهناك في القارب يوجد بعض الطعام
المعلب في حالة لم نصطد شيئاً.

- وكيف تريدنا أن نذهب إلى الساحل باللحظ أم بالسير
العادي؟

- يبدو أن عدم اختلاطك بالبشر وتجردك عن المادة قد
أنساك طريقتهم بالتنقل وقوانين المادة المتبعة،
ومادما سنصيد بالطريقة المعتادة فسنسير كالمعتاد
إلى هناك.

وراحا يسيران وهو يمسك بيدها ويساعدها على المشي
كطفلة تحبو وللتو توقفت على قدميها وتريد أن تكتشف
الإحساس بالمشير، كانت ناعمة كالماء الذي يفيض من
العيون ببطء، وساكنة كصخرة عظيمة أسفل الشلال تستقبل
سقوط قطرات الماء بكفٍّ من حبٍّ وعينٍ من فرح، أحس
بجمال من نوع آخر وهو يلمس يدها الدافئة، فالروح لا

يجري بداخلها دم ولا تسمع لها نبض بل تكون كلها قلب،
هناك من الجمال الذي يسكت عنه الإنسان عجزاً فكيف يمكن
أن تصف شعورك وأنت تمسك بقلب امرأة بيدك وتساعدتها
على المشي؟

- خبريني عنك؟

- ماذا تريد أن تعرف؟

- أي شيء، فأنا لم ألتق بروح من قبل؟

- لماذا تطلق عليّ لقب روح؟

- لأنك لست من زمني ولا أرى لك جسماً مادياً ولا
أدري ما أنت ولا أعرف اسمك

- الأسماء لا وجود لها إلا في عالم الدنيا لأنهم لا
يرون إلا وجوههم الظاهرية وقد تتشابه عليهم
فيطلقون الأسماء خوفاً من ضياعهم بين وجهين
متشابهين، أما إذا غادروها فإنهم سيعرفون أن لا
أحد يشبه أحداً أبداً، وإسمي الدنيوي غادرته من

زمن بعيد ونسيت ماذا كانوا يطلقون عليّ، يمكنك
أن تناديني بالعبارة لأنني عابرة ولست روح.

- وماذا يعني عابرة؟

- يعني أنني أملك حرية التنقل بين العوالم المتعددة ولي
قدرة العودة إلى أية حياة سابقة، وللدخول إلى عالم
جديد آخر أعلى يجب عليّ التكامل في العالم الذي
يسبقه، وهذا ليس مرتبطاً بزمن، بل بقدرة الروح
على اكتساب الكمالات.

- وكم عالم عبرت حتى الآن؟

- أكثر من ألف عالم.

- هذا يعني وجود عوالم كثيرة؟

- أكثر مما تستطيع التخيل. لقد أخبرني معلم في عالم
قاف أن الله خلق سبعين ألف عالم لكنني أعتقد أنه
مخطئ وأن العوالم غير قابلة للعد.

- لكن ألا يبدو ألف عالم يحتاج من الوقت أكثر من
أربعة آلاف عام؟

- هناك عوالم متوازية مع عالم الدنيا والوقت فيها مماثل، وهناك عوالم تكون الدقيقة الأرضية عندهم شهراً، وهناك عوالم ينعدم فيها الزمن، وعوالم أخرى مرتبطة ببعضها كالأم والرضيع فبمجرد دخولها تستطيع الشعور بكل العوالم المرتبطة بها وتراها حتى بدون أن تطأ بقدمك على أرضها.

- وهل زرتِ مدنِ العشق السبع؟

- لم أسمع أن هناك مدناً بهذا الاسم في العوالم التي عبرتها، ربما تكون في عالم أعلى لم أذهب إليه بعد.

- لا عليكِ، دعينا نجمع الحطب، فالغروب سيحل بعد قليل وأنا جائع ولا أقوى على انتظار سمكة، ذاك القارب لي، لقد أهداني إياه صديق طيب، سنذهب إليه أولاً ونحضر منه علبة طعام أو اثنتين، ما رأيك؟ أي طعامٍ تشتهين؟

- نحن العابرون لا نأكل المادة. نتغذى على لون الغروب ورائحة الأشجار وصوت الريح وابتسامات

الفقراء وكلمة شكراً عندما تخرج من قلب مُحْتَاج،
ووجبتنا المفضلة هي ضوء الشموع، ألم ترى تلك
الليلة عدد العابرين الذين كانوا يحيطون بضوء
الشمعدانين في الكوخ قرب البحيرة.

راحت السماء تصبغ جسد الشمس بلونٍ أرجواني حتى
رقيبتها، وتركت الباقي بلونٍ برتقالي، وبينما كان هو مشغول
بفتح علبة الفاصوليا المعدنية ووضعها على النار حانت منه
التفاته نحو العابرة التي وقفت في آخر الرصيف الخشبي
عارية، باسطة ذراعيها، رافعة رأسها نحو الشمس، تاركة
لكلها تناول لون المغيب، شاهد الضوء يجذب لجسدها
كقطرات المطر السابحة تعوم ببطء وتمتزج بالساقين،
بالخصر، بالرقبة، وتختفي داخل شعرها الأشقر محولةً لون
جسد العابرة إلى لونٍ ورقة خريف.

أنهت العابرة تناول وجبتها، وأنهى هو وجبته، وقبل أن
تصل إليه رمى علبة الفاصوليا بعيداً ولم يأكل منها حبةً
واحدة.

جمّع صنارته الكبيرة ووضع بنهاية الخيط سمكة معدنية تزن 32 غرام، وراح تتبعه العابرة حتى آخر الرصيف الخشبي، وبدأ يرمي الخيط ويسحبه بينما جلست هي على الرصيف بقربه وأنزلت قدميها وبدأت تحركهما وتلعب بالماء وتراقب وجهه في الظلام وهو هادئ، مطمئن، يعضّ شفتيه تارة ويمسح أنفه تارة أخرى وينظر إليها أحياناً ويبتسم، تذكرت سؤاله عن مدن العشق السبعة فقالت له:

- لقد سألتني عن مدن العشق السبعة، ومازلت

مستغربة أنني لم أسمع بهنّ رغم تجوالي الكثير

وسفري الدائم، فهل تعرف شيئاً عن هذه المدن؟

التفت إليها وحقق بها، وبعد لحظة صمت عبرت على

عينيه رمشةً مكرٍ وقال:

- سأخبرك عنهنّ بعد أن تخبريني لم كنت الوحيدة من

بين كل تلك المخلوقات عند البحيرة من جاءت إلي

وخاطبتني؟

ارتبكت قليلاً وأحست برعدة سرت بكل كلها وأدارت
وجهها نحو البحر وتمتمت:

- لا شيء، لست أدري ما أقول، سأخبرك عندما أجد
الجواب.

- وهل العابرون يكذبون؟

- لا يمكنهم ذلك، فالصدق أصبح ملكة عندهم ولا
يملكون القدرة على الكذب، لكنهم بالطبع يملكون
حق السكوت.

- حتى مع رجل فضولي ملحاح مثلي؟

- حسناً سأخبرك، لكن في البداية علينا أن نتفق بأن
النبوءات بالرغم من حقيقتها إلا أننا يمكن أن نخطئ
في فهم إشارات تحققها.

- نعم، نحن متفقان على ذلك.

- جيد، منذ خمس مائة عام كنتُ عابرة بالصدفة مع
سرب إوز بري فوق مدينتي التي ولدت فيها، كنت
أطير وحدي في الخلف على مقربة من آخر القافلة

المهاجرة حتى لا أتسبب بإرباك أمانهم وهناك رأيتُ
امرأةً عائدةً من النور، أعرفها، إنها إحدى شريكات
العذاب التي صادفتها في آخر مرة باعوني فيها إلى
بلاط ملكة أور، كانت منجمة الملكة الخاصة، تأتي
كلما طلبتها، وأحياناً تأتي كلما دفعها الجوع، رأيتها
عند أطلال المعبد تتمشى شامته وتنثر بأقدامها
تراب المعبد، وكأنما تستنطق أجساد سدنته
المرتجة بتراب الأرباب التي جعلونا عبيداً لها،
عرفتني هي أيضاً، سألتني عن حالي، فشكوت لها
الوحدة وأنها قد كذبت عليّ في الدنيا عندما أخبرتني
أن الله لا يخلقنا فرادى وهو يعلم أن قلوبنا لا
تستطيع العيش منفردة، لذلك فهو يشطر النفسَ
الإلهي الذي ينفخه فينا إلى شطرين ويجعل نصفه
الآخر في الآخر ويهبه بوصلة في قلبه تدله إلينا،
لكننا عند وصولنا هذا العالم ربما نستعجل فنختار
زواجاً غيره فنتعب وننكسر ونفصل، ثم نجرب

شخصاً آخر وآخر حتى يكون خلاصنا هو الزوج
الذي خلق لنا من الأساس.

وربما أننا نصادفه في أول الطريق لكننا لا نراه
لأننا أغلقنا البوصلة لكثرة تراب الخطايا التي
نتركها خلفنا عند كل خيبة.

وربما رأيناه وهو يصطدم بنا كإشارة لا بد لنا من
التركيز عليها، لكننا نعتقد بأننا آلهة ونختار لأنفسنا
غيره ونستصغر هذا الشريك الذي يحمل نصف
نفسنا الإلهي.

لكن أكثر ما يُحزن الله هو ذلك الذي ينكسر ولا
يسعى لترقيع شظاياها، يصبح مجرماً وهو لا يدري،
يقتل الروح الواحدة التي خلقها الله وشطرها في
جسدين، يقتل نفسه بالقنوط ويقتل زوجه الذي
ينتظره دون جدوى.

أخبرتها أنني مازلت أذكر كلماتها وأخبرتها أنني
مازلت وحيدة، فقالت لي:

- لقد كذبتُ في حياتي السابقة كثيراً، أَعترفُ بذلك،
لكني لم أكذب عليكِ بهذا الخصوص، لكني عندما
أخبرتكَ ما أخبرتكَ لم أكن أعلم أن الوقت لا ينتهي
وأن حياتنا تتبعها حيوات بلا نهاية، لذلك فلدي
تعديلٌ بسيط على ما قلت لك سابقاً وهو أن نصف
روحك الآخر قد لا تصادفينه في حياة ما بطولها
لكنه حتماً سيأتي في حياة ما، وتأكدي أن نصف
روحك الآخر موجود وها أنا أراه سيظهر في
جزيرة ما وقت الغروب يمد ذراعيه إليك ويضمك
إلى صدره ويسدل ستار الانتظار.

في هذه اللحظات، علقت سمكةً كبيرة في صنارته فراح
يجذبها برفق نحو الساحل، يسحبها قليلاً ويُرخي لها الخيط
قليلاً على وقع تصفيق العابرة وطيرانها ذهاباً وإياباً بين
السمكة والصيد حتى تعبت السمكة وجاءت طائعة مع الحبل
نحو الساحل، وهنا تحولت العابرة إلى قمر صغير أضاء
الجزيرة تلك الليلة كي يرى الصيد سمكته التي اصطادها.

كانت سمكة (قد) كبيرة تزن أكثر من خمسة عشر كيلو غراماً، راح يخلصها برفق محاولاً عدم جرحها وبعد أن أخرج السمكة الحديدية من فمها تركها ترجع بسلامٍ إلى البحر وهنا صرخت العابرة:

- لماذا تركتها ترجع، هل مذاقها سيئاً؟

- بالعكس أنا أحب مذاق هذا النوع من السمك لكن ببساطة تركتها تذهب لأنها أكبر من حاجتي بكثير، أنتِ لا تأكلين السمك ولا أياً من العابرين هنا وأنا لا أستطيع أن آكل عُشرها، لذلك فمن العبث أن أخرجها من الماء.

- ماذا ستفعل الآن، هل تستمر بالصيد بحثاً عن سمكةٍ صغيرة؟

- سأحاول غداً صباحاً، أما الآن فقد حان وقت الرجوع إلى الكوخ وعمل القهوة والاسترخاء والتدخين، لا تقلقي عليّ، فلديّ طعامٌ مملبٌ كثير ولن أموت جوعاً.

لملم صنارته ووضعها داخل كيسها المعتاد وعلقها على ظهره وأخذ علبتين من الطعام المعب وأربعة من قناني المياه المعدنية من القارب، وراح تتقدمه العابرة على شكل بالونة مضيئة تضيئ له طريق الرجوع وهو ممسكٌ بخيطها، وبعد سبع خطوات بالضبط مشاها نحو البحيرة قالت له العابرة:

- لم تخبرني عن مدن العشق السبعة؟
- ألم تنسي بعد، وضحك بصوتٍ عالي.
- لا لم أنس، والطريق إلى البحيرة سيأخذ أكثر من ساعة ولا أريد أن أتركك تقضي الساعة بالصمت، وأضاء البالون أكثر لأنها ابتسمت.
- أنا لا أعرفها بالحقيقة لكني سمعتهم يتكلمون عن إنها مدنٌ في طريق السائرين نحو جوهر الوجود، الباحثين عن الكمال المطلق، هناك غريزة عند جميع البشر تدفعهم نحو الكمال، حالة جوع دائم للكمال، لكنهم وحسب مداركهم يتوهمون الكمال في

أشياء ناقصة كمن يتوهم الكمال في الجمال فترينه
يتنقل من وجهٍ إلى آخر ولا يزيده التنقل إلا جوعاً
للمزيد، كالملوك الذين يتوهمون الكمال في إخضاع
الناس والأرض وحتى لو تمكنوا من احتلال كل
الأرض فإنهم سيفكرون في احتلال باقي الكواكب،
كالشعراء الذين يتوهمون الكمال في قصيدة شعر
لكنهم يشعرون بالضياع بعد كل قصيدة ولن يصلوا
إلى الرضا حتى لو كتبوا ملايين القصائد الرائعة،
كالعلماء الذين يتوهمون الكمال بالمعرفة يموتون
وهم نادمون على عمرهم بعد أن يتبين لهم أنهم لم
يتوصلوا إلى شيء بالنهاية وأن ما لا يعرفونه أكثر
مما عرفوه بكثير.

الله هو الكمال المطلق وكل ما عداه وهُم كمال، وهو
الحقيقة الوحيدة الكاملة وهو جمال الجمال ولُبُّ
المعرفة وسر الأسرار، وفقط أولئك الذين أدركوا
هذه الحقيقة هم الباحثون عن الكمال الكامل وهم
وحدهم من سيغادرهم الجوع بلا رجعة، ولكي

يصلوا إلى الله عليهم العبور من خلال هذه المدن
السبعة.

المدينة الأولى تسمى مدينة الحب وهي مدينة متعبة
لأنها البداية وكل البدايات شاقة، على العابر فيها أن
يلبس حزام الجد ويضع في فمه حصاة وفي قدمه
حجر ويربط حول معدته خشبة وأن يوطن نفسه
على المصائب والفقدان، عليه ألا يلتفت إلى الوراء،
ويحمل معه فأس الإرادة، ويقطع جذور العلائق
التي تمنعه من الانعتاق ويحرق هذه الجذور كي
تدفئ الروح الغريبة في ليالي المدينة الباردة، وما
أن يصل إلى حافتها الأخرى حتى يتساوى عنده
الإيمان والكفر والشك واليقين والموت والحياة.

المدينة الثانية تسمى مدينة المودة، ما إن يدخلها
العابر حتى يحس ببداية مودة نحو الحبيب الغائب،
غائب عن بصر وبصيرة المحب لا غياب شخصٍ
أو رسمٍ أو أثر، العيب في عين العابر الذي يتساوى

عنده الخير والشر والضياء والظلمة وساحل النهر
وساحل البحر وساحل المحيط، لا يعبر منها إلا بعد
أن يقتلع عقله ويرميه ويدفنه تحت تراب هذه
المدينة، فعند بوابة الخروج من المدينة يصاب بنار
العشق التي لا تحرق القلب، بل تذيب الروح
كالرصاص وتصبه في قالب القلب البارد فيتصاعد
بخار الانصهار ويعمي العين عن رؤية ما عدا رب
الأرباب ولا يخرج من باب المدينة حتى يصاب
بالجنون.

المدينة الثالثة هي مدينة الهوى وما أدراك ما
الهوى، ناراً تلظى، لاتاً وعُزى، خبالاً وسُكراً
وحيرةً، غربالاً بين الكاذبين الذين سيسجدون إلى
صنم الكعبة وبين العاشقين الذين سيسجدون إلى
ربّ الكعبة ولا يخرجون منها إلا بعد أن يملؤوا
جيوب أرواحهم بالمعارف واللطائف والخفايا وهم
يصرخون هل من مزيد؟ وقبل أن يغادرون يغادروهم
النوم ويصحبون القمر ويعبرون ولا يعبرون، فهذه

المدينة لا بداية لها ولا نهاية، واللذة فيها غاية الغاية
لولا رحمة ربهم الذي يفتح لهم خيط نور كي يكملوا
المسير.

المدينة الرابعة مدينة الصبابة، لا يدخلها إلا
المخلصون، الصادقون الذين فارقوا الكاذبين
ومدعي الحب والعشق الإلهي المزيفين في مدينة
الهوى، يرى العابر في هذه المدينة أن الدنيا بأجمعها
لا تساوي عفطة عنز وما الكون سوى خرم إبره،
الأرض ذرة تراب والسماء فقاعة صغيرة،
والموجودات عدم والضوء مثقال ظلمة، سيتخلى
عن كل شيء بإرادته وسيترك روحه وقلبه تحت
رمل هذه المدينة، فباب الخروج لا يفتح حتى يتجرد
العابد من آخر ذرة شرك، والروح والقلب هنا شرك
أعظم من كل شرك المشركين.

المدينة الخامسة تسمى مدينة العشق، ساعد الله
العابر في هذه المدينة المضطربة حينما تختفي

الكثرة ولا يتبقى سوى الوحدة، يختفي الأبد والأزل
والوقت والزمان، وتختفي الأماكن، ويصبح الكل
جزءاً ويختفي ذلك الجزء في ذرة جزء الجزء، لا
يعرف العابر نفسه من الله، لأنها مدينة لا تقبل
الثنائية ولا بقاء فيها إلا للوحدانية، لا يدري أهو الله
والله هو العابر أم أنه هو العابر والله هو الله.

المدينة السادسة هي مدينة الوله، مدينة الأحزان
والآلام الطويلة، مدينة الضياع والتهيه والاعتراب،
لا يدري العابر وهو العاشق حدّ الوله هل هو
موجود أم غير موجود، باطن أم ظاهر، خفي أم
جلي، سعيد أم شقي، رب أم مربوب، مؤمن أم
مشرك، واصل أم غير واصل، حبيب أم عدو،
شيطان أم إنسان، ضاع منه كل ما جمعه من تحف
المدن السابقة دفعة واحدة، وأصبح فجأة لا شيء.

أما المدينة السابعة الأخيرة فهي مدينة الهيام،
مدينة النسيان والفناء، هنا تنتهي اللغة ويخرس
الوجود.

هناك من يقطع المسافة بالترتيب، وهناك من يحرق
المراحل كما يحرق الدمع خد العاشق، وهناك من
يتيه في مدينة ما ويطويه النسيان، وهناك من يفنى،
وهناك من يبقى بعد الوصول ويرجع وقد أصابه
الخرس وأخرسه الشوق ويستعجل الموت لكنه
يخجل من إظهار الجزع فيعيش بين الناس بجسده
وكله في غير هذا العالم، بالنهاية الأمر يعتمد على
العابر وصدقه وصبره وعزمه، وإلا فإن يد الله
ممدودة دائماً وفيضه جارٍ ورحمته تبحث عن إناء
يحتويها.

- وهل زرت تلك المدن أيها المعلم؟
- للمرة الثانية أخبرك أنني لست معلماً، فمازلت طفلاً
يرضع من فيض هذا الوجود، وليت لي القدرة على

الحبو كي أسرع نحو هذا النور الذي أغرق العالم،
ناديني بالصياد.

- هل زرت تلك المدن أيها الصياد؟

- لا تتعبين أبداً ولا تنسين أبداً وكنتُ أظنني الوحيد
الذي لا يتعب من الطلب، نعم حاولت السفر نحو
هذه المدن وفشلت، أقعدتني تعاستي وسوء حظي
وقلة همتي وركوني إلى هذه الدنيا التي تسري في
عروق عروقي.

- وإلى أي مدينة من مدن العشق السبعة وصلت؟

- الفشل يا صديقتي له معنى واحد فقط، وهو أن
الفاشل يرجع خالي الوفاض ولا يهتم إلى أية مدينة
وصل.

- أجمل ما في فشلك أنني أصبحتُ صديقتك باعترافك
يا صديقي.

ونزلت تمشي بقربه كقطعة أليفة تلتف حول قدمية
وتموء بضحكة مجلجلة، فبادرها كمن كان نائماً وأستفاق:

- نسيْتُ أن أسألك عن كل هؤلاء العابرين الذين رأيتهم عند البحيرة، هل يتواجدون هنا دائماً أم أنهم مرّوا من هنا بالصدفة؟

- هذه الجزيرة هي إحدى الأسواق التي لا تخلو من العابرين طوال الوقت، يرتادها العابرون من كل العوالم وهي مزدحمة باستمرار.

- سوق؟

- نعم سوقٌ للمعرفة، يأتي العابرون محملين بمعرفتهم وتجاربهم من سفرهم في هذا الكون اللامتناهي ويقايضون معرفتهم مع بعضهم البعض، البعض يقايض معرفةً ما بمعرفةٍ مثلها وبعضهم يقايضها بعشر أضعافها وهكذا، أما بالنسبة لي فهذه أول مرّة آتي للتبضع من هذا السوق ولم أعرض بضاعتي حتى الآن.

وصلوا أخيراً على مقربة من البحيرة وكانت مزدحمة للغاية بكل أشكال الحياة، نساءً ورجالاً وحيوانات وطيورٌ

وأشجارٌ وحشرات وأسمالك، وبالطبع كانت اليراعات تضيء
المكان كزفة عرس.

توجهها نحو الكوخ، فوجد حقييته والشمعدانين والخيمة
فوق الأعشاب ولا أثر للكوخ، لقد اختفى الكوخ ببساطة، أدار
وجهه مذهولاً نحو العابرة فهزت كتفيها مستغربة هي
الأخرى من اختفاء كامل الكوخ بغرفته وشرفته المطلة على
البحيرة ولا آثار لحريق أو بقايا خشبة واحدة.

في لحظة الحيرة تلك دنى منهما أسدٌ أبيض ذو لحية
كثّة وذؤابةٍ شقراء بلون الذهب وقال للصياد:

- لا تستغرب فوجد الكوخ أخذ الكوخ لأنه كبر عن
العبث.

- من أوجد الكوخ وكيف أخذه؟

قالت العابرة.

- رفيقك هذا الآدمي هو من أوجد الكوخ عندما لم
يعجبه الكوخ الكبير في الضفة الأخرى عند قدومه
للجزيرة.

- أنا أوجدته؟
- نعم، لكنك لم تكن تعلم بأنك وصلت إلى مرحلة
تستطيع بها أن تجعل أوهامك حقيقة.
- ما زلت لا أفهم.
- سأقايضك معرفةً بمعرفة، فهل أنت موافق؟
- وما عساني أن أعرف وأنا الآدمي المحبوس في
جسدٍ من طين، كمارِدٍ داخل جرّة ماء فخاريةٍ
صغيرة؟
- عليك فقط الموافقة وأنا راضٍ بهذه الصفقة.
- كما تريد.
- اعلم أن الله خلق الإنسان على صورته، وأودع فيه
كل قدرته، فكما أن الله يقول للشيء كن فيكون،
فكذلك الإنسان يستطيع أن يقول للشيء كن فيكون،
لكن الإنسان بطبيعته عابث، متسرع وكسول، لذلك
فلقد جعل الله في داخله تلك القوة على شكل وهمٍ أو
خيال، ومتى ما أستطاع الإنسان أن يتغلب على

طبائعه الدنيوية والسيطرة على غرائز المادة من
تسرعٍ وعبثٍ وغضبٍ وبخلٍ وحسدٍ وغيرهٍ وفسادٍ
وانتقامٍ وسوء خلقٍ وجوعٍ فإنه يستطيع أن يحول
تلك المخيلة من وهمٍ إلى فعل فتصبح حقيقة.

الإنسان يستطيع تخيل أن يمشي على الماء ويطير
في الفضاء ويعبر الجدران ويقطع المسافات برمشة
عين وينام في مكان ويصحى بمكان آخر ويحفر
الأنهار بلحظة ويكسر الجبال بإشارة ويشعل النيران
بلا حطب ويطفىئ الحرائق بلا ماء، إنه يستطيع
تغيير العالم والتأثير بكل جزء في هذا الكون وهو
في مكانه، وهذه قدرةٌ مخيفةٌ وخطيرة لو جاءت مع
الإنسان بلا ضوابط ولا قيود، لذلك جعلها الله على
شكل وهمٍ حتى يتنبه لوجودها الإنسان الغافل من
سكر المادة بعد دخوله هذا العالم وجعل طريق
استعادة هذه القوى عن طريق تهذيب الإنسان لباطنه
وتغلبه على نزعات المادة الشريرة.

أنت حينما جئت إلى هذه الجزيرة لم تكن تعلم بأنك
قد وصلت إلى مرحلة تحويل الوهم إلى فعل،
وتوهمت كوخاً فتتحقق لك مرادك بالحال، وعندما
تعلمت أن العبث غير جدير بالإنسان الباحث عن
الكمال اختفى الكوخ في العدم كما كان.

كذلك الأمر في الجنة، هل فكرت يوماً كيف يمكن
للخالد ألا يشعر بالضجر؟

إن الله يعطيك أرضاً بكرةً أكبر مما يمكن أن تصل
إليه مخيلتك وأنت تختار شكل البنيان، تبني قصرًا
وتهدم آخر وتجري نهراً وتلغي آخر، تعلق في
السماء مراجيح من ياسمين وتخلق من خيالك حور
عين وتدخل لها من تشاء وتبعد عنها من تشاء،
توجد بها ما يعجبك من الأشجار ويمكنك في حالة
ضجرك أن تحولها كلها إلى صحراء وتقطعها على
بعير، أو بنظرة طرف تجعلها بحراً هائجاً وتقطعها
بقارب صغير موشكٍ على الغرق، يمكنك تشكيل

سمائها بالبالونات بدل النجوم وتجعل بها ما تشاء
من الأقمار، الجنة هي أنت والأبد وعصا كن فيكون
وخيالك.

هل اتضحت الصورة الآن؟

- نعم

أجاب الصياد بسعادة، ونظر إلى السماء فتكوّن قوسٌ
قزح من أربعة عشر لوناً وعلى شكل سمكةٍ كبيرة، تحولت
بعدها إلى موجة بحر غطت السمكة وجاءت ريح أزالَت
الموجة وارتطمت بجبل، رفع ثوبه العربي بيديه وراح
يركض ثم وقع وتناثر حتى أصبح رمالاً ناعماً يطبطبُ على
كتفه زبد موجة بحر خفيفة تخرج منها سمكة ملونة بأربعة
عشر لوناً تقفز من البحر وتتحول في طريقها إلى السماء إلى
قوس قزح يأخذ بالتلاشي ويختفي، ويضحك الجميع.

- جاء دوري في المقايضة.

- نعم

يجيبه الصياد.

- كيف أحصل على السلام؟

- عليك بالغفران.

ارتج الأسد وتحول إلى شاب لا يتجاوز الثلاثين من
العمر وراح يبكي وهو يقول:

- بعد عبوري من ذلك العالم، أدركت أن عيني لم تكن

تبصر، وأذني لم تكن تسمع، وفمي لم يكن يتكلم،

ولساني لم يكن يتذوق، ويدي لم تكن تلمس، وقدمي

لم تكن تسير، وأنفي لم يكن يميز العطور، أدركتُ

وأنا أرى جثتي ساكنة أن عينيَّ لم يزلا في مكانهما،

فلماذا لا تبصران؟ أذني، فمي، لساني، يدي، قدمي،

أنفي وكل جوارحي مازالت بمكانها، فلماذا تعطلت؟

بعد أول ثانية لي في العالم الجديد أدركتُ أنني لم

أكن أنا، وما جسدي السابق سوى لباس آخر لبسته

خلال رحلتي، وأن الناس بوعي أو بدون وعي

تتعامل معه وكأنه مجرد لباس، يغسلونه ويعطرونه

ويخبئونه بالخزانة، لن نختلف على نوعية الخزانة،

خزانة على شكل جرح في باطن الأرض، مزهرية
فخارية مغلقة، أمعاء الأسماك في قعر المحيطات،
هي بالنتيجة ليست سوى خزانة.

بدأت أدركُ بأنني كنتُ أنا بكلي الباصر، السامع،
الناطق، السائر، المتذوق، الشاعر، وأناي كنت
أهرب من بساطتي نحو التعقيد، فكنت أخرج النظر
من عيني والسمع من أذني والكلام من فمي، وأناي
كان بمقدوري أن أتذوق من عيني وأسمع بها وأتكلم
وأسير، لكنني استسلمت لقوانين المادة فراححت هي
من تتحكم بقدراتي، ونسيت أنني مخلوق لأجل أن
أتحكم في كل الكون.

لكنني خرجتُ من الدنيا وأنا أحملُ حقداً على إنسانٍ
سرق مني سبب وجودي وكل يومٍ يزيد كرهني له
وتزيد تعاستي، طريق الغفران صعب، لكن ربما قد
حان الوقت لدخول عالم الغفران.

بعد أن رحل الأسد وأبدى شكره على هذه النصيحة،
أمسكت العابرة يدي الصياد وقالت بحماس:

- هل تعمل معي مقايضة؟

- وما هو عرضك والطلب، مع أنني يسعدني أن أقدم
لك ما أستطيع بلا مقابل، لغة السوق هذه جديدة عليّ
وتجعلني أشعر بحالة لا أستسيغها.

- هذا لأنك تفكر بالسوق الدنيوي وعملية الغش
والاستغلال والكسب غير المشروع، السوق هنا له
روح كأرواحنا تماماً، وهو عالم خاص له قوانينه
التي تصب كلها في سعادة نفوسنا وتساعدنا على
الكمال.

- طيب، ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

- أولاً، سأعرض عليك أخذك إلى عالم آخر، ترى
فيه أجمل منظر للغروب يمكن أن تتخيله، ومن ثم
تعطيني إجابة على السؤال الذي من أجله أتيت إلى
هذا السوق كما أعطيت الإجابة للأسد.

- وماذا لو كنت لا أعلم إجابة سؤالك؟

- لا عليك، أنا راضيةٌ بهذه الصفقة.

- اتفقنا.

في اليوم التالي وقبل نصف ساعة من الغروب أمسكت بيده، وبلحظة وجد نفسه في بلادٍ أرضها غيم بلون الذهب، وسماؤها بحر، وبوابة الدخول قلعة كبيرة على شكل رأس رجلٍ يشبهه، أشارت بيدها إلى الباب فغاص في الغيم، وبيدها الأخرى أوقفت الشمس، وراحت الغيمات تقترب منهما الواحدة تلو الأخرى وتستقبل أقدامهما بعد أن تنتهي الغيمة السابقة، كانت العابرة قد زرعت الغيمات بأشجارٍ بيضاء وصفراء وأرجوانية وقصت أوراقها على شكل وجه الصياد، حتى تمثل بوذا الكبير المنصوب على أكبر غيمة يشبه الصياد لكن بملابس المبجل بوذا، قصورٌ كثيرة وبحيرات من غيم ومراجيح بلا أعمدة، ونمور من ذهب تتحرك وتطارد خيوط شعر الغزلان الذهبية الطويلة، وهناك غزلان تتعثر بشعرها المنجذب للريح والراكض خلف

أسراب الفراشات التي تحمل في أياديها نايات ذهبية منحوتة بدقة على شكل رأس الصياد، بعد نهاية آخر غيمة على ساحل الغروب، مرّت من أمامه غيمة صغيرة مزروعة شجرة وردٍ جوريٍّ أحمر مقطوعةً منها ثلاث وردات، أجلسه على كرسيٍّ من غيم رماني مشبع بالسواد قبالة الشمس الواقفة بانتظاره ما بين الغيم الأصفر والبحر اللازوردي الذي تتقافر منه الدلافين الوردية، ويخيل إليك أنها ستقسط في حضن الشمس، لكن البحر يفتح لها ذراعيه ويداعبها بلطف، شعر بالكرسي وكأنه المتحكم بالبحر في الأعلى والغيم بالأسفل وهو المتحكم بالكرسي، جلست العابرة تحت قدميه وأمسكت بساقه اليمنى وقالت:

- تعلمت الرسم في أربعة آلاف سنة كي أخرجك من رأسي وأجعلك بين يدي، رسمتك قلعة، رسمتك على كل غيمة، رسمتك ناياً تحمله الفراشات، رسمتك بوذا، رسمتك صفافة بيضاء، ياساً بنفسجياً، رسمتك شمساً مصلوبةً وقت الغروب، رسمتك بحراً، دلافين، مرجان، كؤوساً من زجاج، علقتك

في غرفة نومي شالاً أزرق، رسمتك باب مملكتي
وجلست أنتظرُ أربعة آلاف سنة في جزيرة
مهجورة ستزورها يوماً ما، لا أعرف ذاك اليوم
لذلك أنا من أسس ذاك السوق بتلك الجزيرة، أنت
بضاعتي الوحيدة التي من أجلها أوجدتُ ذاك
السوق، لألفي سنة أرى العابرون يشترون ويبيعون
وأنا صامته بانتظار صفقةٍ عظيمة، ورأيتك تأتي في
الضفة الأخرى فوضعت لك وردة أمام باب منزلك،
وأخريين في الطريق خلف منزل صديقك العجوز،
أردت أن أفرش كل طرقاتك بالورد، أغريتك أكثر
مما ينبغي كي تبهر نحو الجزيرة.

أنت رفيقي وأنت شريكي وأنت توأمي، ولا أريد أن
أنتظر أربعة آلاف سنة أخرى حتى تصل أنت لهذه
الحقيقة.

صدقني يا حبيبي لو أخبرتك أن السنين باردة،
والعالم أكبر من أن نفهمه، ولا جدوى من كل هذا

الوجود بلا صدر رجلٍ تلقي عليه المرأة عُري
رأسها وتنام، ما جدوى أن تعبر البحر مشياً على
الماء ولا يوجد أحدٌ في الضفة الأخرى ينتظرك؟ ما
جدوى أن تطير في السماء ولا يوجد بين الغيمات
قلبٌ ينبض بحبك؟ ما جدوى كل هذا الهراء من
عبورٍ وخلودٍ وسماوات وعوالم لا تنتهي إن لم تقبل
شفة امرأةٍ آخر النهار؟

تعال تعرى ولتطفئ عطش قلبٍ لم يذق الماء من
أربعة آلاف سنة، تعرى ودعني أشربك نخباً واحداً
في قعر كأس، تعرى وليحترق كل الوجود.

تخشب صامتاً لا يدري ما يقول، الموقف أكبر من عقله
وروحه وقلبه ووهمه، هل يعقل أنه كان منتظراً لها دون أن
يعرف؟ هل كل هذا المسير والتعثر والألم والتهيه والحيرة
والمرض والقلق والشقاء كي يصل إليها؟ ماذا لو كانت
شيطاناً جاءت تبعده عن درب الله بعدما أوشك على
الوصول؟ هل يوجد شيطانٌ عابر؟ هل هذا الحب غير

شرعي وضد الله؟ هل التنسك والسير والسلوك والفناء
وادعاء البحث عن الحب مجرد خدعة وأن الحب الحقيقي هو
حضن امرأة آخر النهار؟

وقبل أن يثور رأسه كالبركان من غليان الأسئلة التي
هجمت كلها عليه في لحظة واحدة، وجد فيه في فيها ويده
خلف خصرها وقدميه تطوقان قدميها وظهره مرمياً على
ساحل غيمة تطير بهما نحو الشمس التي مازالت مسمرةً
بالغروب، أحس بارتفاع حرارة ذرات جسده شيئاً فشيئاً حتى
التهبت كل ذراته واحترقت وأصبحت رماداً يختفي هويناً
هويناً من بين يدي العابرة ويسقط فوق أرضية الغيمة
ويختفي.

تجمعت ذرات الرماد وقامت قيامتها وجاءها الخطاب:

- أيها الإنسان البائس الذي يتركني في كل مرة، وفي
كل عالم، وفي كل نشأة، وفي كل وجود، ويرتمي
في حضن المرأة نصفه البائس الآخر ويختار جنتها

على جنتي ويكرر خطيئته الأولى باختيار البشرية
الفانية المقيدة على الألوهية الخالدة الحرة.

كم تحتاج من الوقت كي تدرك أنك بإمكانك أن
تكون إلها بترك غرورك بالاستقلال؟

كم تحتاج من حياة كي تُظهر ذاتك من خطيئتك في
الاختيار؟

متى ستدرك أنك عبد والعبيد لا يختارون لأنفسهم
إلا خيار سيدهم؟

اهبط من سمائي واذهب حيث الأرض سجنك
الأبدى، حيث الألم والجوع والخوف والحرمان
والحيرة والموت، وتحمل تبعه قرارك واختيارك،
وستكون هذه المرة عبداً في عالم قاسٍ لم يصل بعد
إلى حقيقة أن الدم الإنساني واحد وأن تعدد ألوان
بشرتهم كتعدد ألوان الورد، فكل الوجوه جميلة كما
كل الورد جميلة، ربما يساعدك هذا في التخلي عن
غرورك، وربما ستخرج من هذا العالم وأنت أكثر

طُهرًا، ولن تلتفت لغيري مهما حاولت حواء
إغواءك.

الفصل الثاني

العبد الأبق

أفاق على وقع هذا الصوت المجلجل القادم من أعماق
أعماقه في ليلة سوداء باردة، كروحٍ خالويةٍ بلا حبيب
أصابتها حمى الانتظار، في القرن الرابع عشر، في مكانٍ ما
من هذا العالم الذي استعبده الرجل الأبيض.

كانت بشرته السمراء ذابلة كخريفٍ منسيٍّ على حوافٍ
موقدٍ عتيق بلا ظلٍّ جمر، مربوطٌ من الأسفل بسلسلةٍ صدئة
مثل يدٍ متسولٍ عجوز فارغة، تأكل لحم قدميه وأقدام العبيد
العشرة الآخرين الملتصقين به بهذا القيد الذي يشبه الحبل
السري، ومن الأعلى يخنقه طوقٌ حديدٍ ممتد إلى رقاب
الآخرين.

كان المستعبد بخيلاً على عبيده، لكنه كان أكثر كرمًا
من الذي وهب لهم جلودهم وتركها عارية، فقد كساهم
بأثواب رثة وتركهم حفاة يواصلون السير بأقدامٍ عاريةٍ على
دروع الشوك التي لم تستطع كل أمطار الليلة من ترطيب
مخالبها.

كان النخّاس يسير بهم ليلاً ويكمن نهاراً خوفاً من قطع
الطرق أن تسلب منه تجارته الثمينة.

عند شروق الفجر الغائم الممطر المختنق بالضباب
وبخار أنفاس الأرض، أجلسهم في منخفضٍ وحلٍ داخل
الغابة المظلمة تحت شجرة كثيفة تكاد أوراقها تخطط لهذه
البقعة سماء، كان أول شيء أحس به هو دمه الدافئ يصبغ
صداء السلسلة بلون أرجواني لا يختلف كثيراً عن لون دماء
العصافير التي راحت تبارك لبعضها البعض هذا الصباح
الجديد، وهو نفس لون الدماء التي تسيل بعروق ذاك الخنزير
البري الذي راح يراقب المشهد المهيّب بعينين حمراوين
صامتتين.

أطرق يمسح الدم ويتحسس عمق الجرح بقدميه وحول
رقبته، وحانت منه التفاتة إلى عضد النخّاس التي كانت
ممتلئة بنفس لون الدماء التي نرفها، ودار في خلده خاطرٌ
عابرٌ وتمتم في قرارة نفسه :

- كلنا متشابهون من الأعماق وما اختلافاتنا سوى
فروقٍ ظاهريّة، فلماذا يحاول هذا الرجل الأبيض
استعباد الأرض ومخلوقاتِها التي تشبهه حد
التطابق؟

لماذا يكون الكون بهذه القسوة، ويقر قانون العبودية،
ويميز الناس على أنهم أسيادٌ وعبيد، ويصبح هذا
الأمر أزلياً متوارثاً في كل زمان ومكان، ويتوسع
ليشمل كل مفاصل الحياة، ويتشعب ليصبح نظام
الطبيعة الذي لا يمكن لأحدٍ كسره؟

لكن الخاطر تتأب هو الآخر وغفى مع استسلام
صاحبه للنوم.

عند الغروب راحت الشمس تلملم ضياءها كحطّابٍ
يجمع أغصان الأشجار اليابسة ويعود بها محني الظهر نحو
المدينة ليشعل بها برد الليل بانتظار صباحٍ آخر، وكانت قافلة
العبيد تجمع أشلاءها هي الأخرى لتسير بطرقٍ ملتوية نحو
المدينة التي طال انتظارها لبدء مأساةٍ جديدة، بين الفينة

والفينة الأخرى يبرق سوط النخاس على أجساد العبيد الهلكى
لحثهم على السرعة، برقاً بلا ضوءٍ ولا صوت، فالأجساد
سمراء والليل أسمر والسوط أسمر، والعبيد خرس بلا
إحساسٍ بالوجع وليس للدم الأسمر شعور.

كان يمشي في غيبوبة عن هذا العالم، تحركه أقدام
العبيد الآخرين، هناك أفكارٌ تتقاذف في رأسه كالصبايا
المتراكضات أعلى التلة، يتدافعن، يتراقصن، يتصارعن
وتشكو إحداهنّ للأخرى متاعبها وآلامها، أفكارٌ عن الله
والحب والإنسان والحرية، كان يفكر بقلبه الكبير الذي
احتوى كل هذا الكون بزاوية صغيرة داخل حجرته اليسرى
بعد أن يستسلم عقله الصغير في كل مرةٍ إلى الحيرة والشكّ
والتناقض العجيب في أقوال معلمه الفيلسوف العظيم عندما
يتكلم عن أسرار الله وأسرار الكون، كان معلمه يؤمن
بالحرية والعبودية كقدرٍ للبشر، وعقله الحائر تفترسه أنياب
التساؤلات، كيف يمكن للحرية أن تولد من رحم العبودية؟
وكيف يمكن أن يكون الله العادل ظالماً وهو الذي يستحيل
عليه الظلم؟ ما الغاية من خلق الإنسان؟ ولم هذي الطبقية بين

أفراده؟ لِمَ يقدر الله لإنسانٍ ما أن يكون حرّاً يتلذذُ بكل ملذات الحياة طوال النهار وفي الليل يتلذذ باغتصاب شرف العبيد؟ ما الغاية من وجود ألوانٍ بين البشر ويكون اللون الأسمر أدنى الألوان؟ من المسؤول عن البتّ في أفضلية لونٍ على لون؟ أين يا ترى هي الآن؟ هل أرجعها الله أمةً تباع وتشتري كما كانت قبل أربعة آلاف عام قبل العبور؟ في أيّ فراشٍ ومع أيّ حرٍّ وبكم اشتراها؟ هل مازالت تبكي أم تحولت دموعها إلى خرقَةٍ ذلٍ تمسح بها كرامتها المغتصبة؟

هنالك أمورٌ لا يمكن للعقل أن يبتّ بها وهنالك أشياء تجعل العقل يتوقف عن العمل.

ولم يكن هنالك ديكٌ في بوابة المدينة يستقبلهم عند السحر، كانت قافلة العبيد تتنائبُ في مشيها بعد أن هدّها تعبُ الأيام الثمانية والعشرين الأخيرة وبرودة الجو والأمطار التي لم ترق لحالهم ولم تفكر مجرد تفكير برحمتهم، ككل شيء في هذا العالم الذي لا ينتمي إليهم وربما العالم الذي لا ينتمون إليه.

تم عرضهم في الصباح على الأثرياء الأحرار وسط
سوق المدينة المكتظّ بالمتسوقين على دكة خشبية تعلو بمقدار
نصف متر وتجعل العبيد الواقفين عليها كتماثيل من البرونز
تصوّر انتصار البشر على نفسه.

وقف ككوكبٍ وحيدٍ بعيد، في منظومة شمسية نائية هو
الكوكب الوحيد فيها ومحور كونٍ خاصٍ به، حيث لا شمسَ
ولا قمر ولا صنم ولا إله ولا سيد ولا عبد ولا فلاسفة ولا
نوادي تُسكّر بالأحاديث عن الإنسان وتُسكّر العقول التي
نصبت نفسها كمنظرين لباقي البشر، شاهد معلمه الفيلسوف
العظيم يدور خلف أفكاره المهترئة عن المدينة الفاضلة التي
بناها العبيد بآلامهم ويعصرون السعادة للأحرار على شكل
كأسٍ من جنس وقارورة من نبيذ ويدورون حلقاتٍ حلقات
كالمهرجين كي يُضحكوا أسيادهم مواطني المدينة العاهرة.

لم يشعر وهو في شروده عن درب التبانة بتلك السيدة
الخمسينية التي تخفي تجاعيد رغبتها خلف ملابسها الفاخرة
وتكبت رائحة الجنس الصارخ من كل عرقٍ أزرقٍ بين

فخذيها بعطرٍ باهظ الثمن يصل أحياناً إلى سعر عبيدين وسبع بقراتٍ سمانٍ والتي راحت تفتح فاهُ بمخصرتها وتتأكد من قوة أسنانه لتخمن عمره وتنكر عضلات صدره لتتبين خلوه من الترهل والتحسس، وقررت أخيراً أن تضمه إلى قافلة عبيدها المغضوب عليهم، فهذه السيدة تملك أسوء سمعةٍ يمكن أن يمتلكها إنسان.

القديسة كما يسميها كهنة المدينة الأثرياء، سيدة خمسينية لم تعرف الحب قط، نعم هناك أناسٌ لا يطرق الحب أبوابهم لأنهم ببساطة لا يملكون أبواب، فالأبواب تحتاج إلى قلوب، وهناك أناس لا يملكون قلوباً لأنهم استبدلوا بها العبث، إنها تعبثُ بكل شيء، عبثت ببيكرتها وهي ابنة اثنتي عشرة سنة فقط لتفهم صريخ أمها وهي تضرب العبد المستسلم فوقها باكياً وهي ممسكة بالسوط لإخراج المزيد من فحولته التي لم تعرف طريقها إلى أبيها، وبالطبع فدائماً هناك فئران تجارب سود، وعندما تشعر تلك الطفلة بأنها أخطأت، تعود لتقتل العبد بعد ثلاثة أيام بعدما أحست أنها فقدت شيئاً تتباهى به صاحباتها، عبثت بكل شيء يمتلك حساً

بشرياً فقط لتجرب الإحساس بالإحساس بلا فائدة بالإضافة إلى هوايتها الأساسية وهي العبث بالعبيد.

- اسمع، أنت عبيد الآن وهذا يعني بطريقة أخرى أنك مُلكي، ولأنكم معاشر العبيد لا تملكون أدمغة لتفهموا بسرعة فسأشرح لك بطريقة مبسطة لأنني سيدة رحيمة ومؤمنة بالمسيح، لقد اشتريتك لسعادتي، فالسعادة في أيامنا هذه تُشترى كالطعام، فكن سعيداً لأنني اخترتك لتحظى بلمس حرير خصري وتشم عطر أنفاسي وتتمرغ بريش النعام فوق سريري ولم أرم بك في زريبة الخنازير لتتعفن حتى آخر خنزير في حياتك، لكني أريدك أن تعرف بأن إرضائي صعب جداً ولا أخفيك أنك ستُجلد كثيراً حتى تتعلم طريقة إرضائي.

- وهل لي خيارات أخرى؟

- وهل للعبد خيارات غير خيارات سيده، لكني أحب أن أعرف بماذا تفكر؟

- أريد أن أتعفن مع الخنازير.

كانت العابرة هناك، رأتُهُ ولم يستطع رؤيتها، رأتُهُ كيف جاءوا به عارياً يجروه ككلبٍ أجرب وكيف علقوه من قدميه بحبلٍ إلى أعلى أغصان الشجرة العظيمة، كانت القديسةُ هي من خططت لجلده بهذه الطريقة حتى يصل سوطها لكل مكانٍ في جسده، وكأنها أرادت استخراج الرفض من كل ذرة من هذا الكيان الرافض، أمسكت السوط بيمينها وأشارت إلى ثلاثة عبيد آخرين بالبداء بإرجاع خميرة الله إلى ذرات التراب التي بدأت منها، وأشعلت بسوطها الأنيق أول شرارة على جسده، وتبعها عبيدها بفتح النار بمدافع سياطهم التي تشبه مدافع الحرب العالمية الأولى.

كانت العابرة ترقص فوق جسده العاري حافية كعجوريةٍ سكرانة وتغني بيديها وهي كالقديسة مقلدةً حركات أفعى فرعونية وتمسحُ مكان كل سوط بنعومة الرب وكانت تقبل المكان بعدما يغادره السوط، ابتدأت بظهره ونصف صدره الأيمن في أول جلده، وراحت تقبل فخذه وخديه وتقفز إلى

أعلى قدميه، ثم تعود مسرعةً نحو عينيه تمسح وتقبل وتمسح وتقبل كراقصة باليه لا تعرف التعب والملل، وكان هو يترنح ويريد أن يصرخ، لكنه كان كمن يشعر بوجودها فيخجل من عينيهافيبتسم ابتسامة بكاء، حتى غاب عن الوعي فتركته في غيبوبته وسط مخلفات الخنازير، وراحت تمارس عذاباتها اليومية بالجلوس تحت ذلك الكرسي الذي جلس عليه وهو يراقب الغروب.

حين أفاق لم يجد في الكون شيئاً غريباً غير بقائه على قيد الحياة، كان بكله جرح صدئ، يتوسل الهواء كي يمرّ برئتيه والشمس أن تجد لها طريقاً آخر غير جسده المنبوذ، لم يكن يشعر بالألم، كان يشعر بالمرارة، مرارة أن كل ما تعلمه من معلمه الفيلسوف العظيم العارف الصوفي كان مجرد كلمات عابرة، فضفاضة، مثالية مجردة لم تقترب من واقع الإنسان، لقد تعلم بأن الحرية هي ألا يكون عبداً لأي شيء، لا لبشر أو خرافة أو معتقد أو رغبة نفسية أو حاجة بشرية جسدية، وهذا مما لا يمكن لإنسان أن يحصل عليه،

فهناك قيود مادية طبقاً لتكوينه المادي لا يستطيع التخلص منها إلا بالتخلص من بشريته المادية.

كانت القديسة قد أمرت بمنع الطعام عنه حتى الموت جوعاً، لكن بعض العبيد كانوا يدسون له بين الفينة والفينة نصف رغيفٍ يابس أو جزرة ذابلة، ومرة أحضروا له عظمة خنزير عليها بقايا لحم مشوي، لكن ها هو يواجه مصير الموت جوعاً من جديد، فقد مرّت عليه الآن ثلاثة أيام بلا أدنى طعام، وقد توقف العبيد عن زيارته، وبدا الكون هادئاً في الخارج وكأن كل الذين يعملون لدى القديسة قد رحلوا، مازالت جروحه لم تلتئم بعد، ومازال لا يستطيع الوقوف طويلاً، لكنه استطاع أن يخرج نفسه زاحفاً من حمام الخنازير الطيني النتن، واستلقى على القش، وقد هذه الجوع وعينه تبحتان عن بقايا فتات يصلح أن يكون لحافاً لبرد معدته المرتجفة، حرارته مرتفعة جداً والعرق يتصبب من جبينه على شكل أنهر ضيقة تكتسح الطين عن وجهه، وكان لا يدري أهو في غيبوبة أم في حضور، يتقيأ دماً أسود تارة ويسعل دماً أزرق تارة أخرى، أدار وجهه نحو الخلف بعدما

سمع لهاث نفس كائنٍ حيٍّ، فوجد كلباً هزياً يقف خلفه وفي
فمه نصف حمامةٍ ميتةٍ وقبل أن يستطيع الكلب أن يعرف ما
يدور في خلده، انقضَّ على الكلب وسرق جثة الحمامة من
بين أنيابه وبدأ بافتراسها بعد أن غادرته الإنسانية، تاركة
للحيوان بداخله التحرر من كل قيود التحضر.

رفع رأسه للسماء وراح يخاطب الله وفمه يقطر دماً
بارداً وعيناه الغائرتان في الظلام المحيط بهما من أثر الجوع
تسافران للبعيد كنسرٍ مجروح:

- لقد أذللتني حتى جعلتني أسرق الطعام من فم كلبٍ
جائع، وماذا بعد؟ ماذا ستفعل مع قلبك الطيب
وكرمك وحنانك وشفقتك؟ إن كنت قد نجحت في
إذلالني فلن تنجح في خداعي، فأنا أعلم أنك لن
تتركني لبشريتي طويلاً فأنت تحبني أكثر مما يمكن
لبشري أن يتخيل هذا الحب، ربما سيدرك البشر
كمية حبك لهم عندما يصبحون آلهة.

في الحجرة الأخرى في الطابق الثاني من القصر الكبير كانت المائدة تضجُّ من التخمّة بكل أصناف الطعام، لحوم معدة بطرق مختلفة، ثلاثة أنواعٍ من الحساء بنكهاتٍ مختلفة، خضروات نصف مطبوخة وأخرى طازجة، نوعان من الخبز، وشمعدانات ذهبية وملاعق فضة وأواني خزفية راقية، وصمتٌ قاتل لا يكسره إلا سعال القديسة الدموي من فوق سرير لذتها، وصلاة القسيس المتظاهر بالتقوى والحب وهو ينتظر الفرصة السانحة للهرب من هذا البيت الموبوء بالموت الأسود.

كانت القديسة تحتضر بعدما افترس الطاعون قارة أوربا بأكملها ووصل إلى هذه المدينة، منذ ثلاثة أيام حصده نصف السكان وثلاثة أرباع عبيد القديسة.

- يا أبتِ، أنا أشعر بالنار في حلقي وفي معدتي وفي عينيّ وفي كل كياني، أهكذا يكافئ الله عباده المخلصين؟

- إنه ليس عذاباً يا قديسة، إنه نوعٌ من التطهير، لقد ابتعد الناس عن الرب ومخالفاتهم لم تعد تغتفر، مما أجبر الله على التدخل ووضع حدٍ لهذا الأمر، وكأي حربٍ لا بد من سقوط مدنيين أبرياء وأنتِ وكل الرعايا الصالحين من الأبرياء.
- إن كان الله لا يستطيع أن يحمي الأبرياء في حروبه فمن يستطيع؟
- أرجوكِ أن تحتفظي بإيمانك يا قديسة ولا تجدفي فأنت في الطريق إلى الله وستقابلينه بعد أي لحظة.
- نعم، ما جدوى أن أتكلم مع أحرق لا يعرف غير الخمرة وممارسة البغاء في بيت الرب، سأصمت وسأوفر كلامي للرب نفسه، لكن عندي وصية أخيرة.
- نعم من أجل هذا أنا موجود.
- أنا أعلم أنكم ستقومون بحرقي بعد موتي فأريدكم أن تحرقوني في غرفتي هذه وأريد هذا العبد الآبق

المصاب بالطاعون في حظيرة الخنازير أن يحرق
معي.

- لكننا لا نستطيع حرقه حياً.

- بل ستفعل ما أنا أمرك به وإلا فلن تذهب كل
أملكي لكنيستك البائسة.

يأتي القسيس إلى الحظيرة ومعه رجلان آخران،
يرفعان تلك الجثة التي مازال قلبها يتنفس من إبطيه
ويسحبانه خارجاً ويلقيانه في عربة كبيرة تجرها أربعة خيول
تحمل جثث عبيد آخرين مازالوا ينتظرون رحمة ملك
الموت، تسير العربة باتجاه أسوار المدينة والوقت يسابق
أنفاس الخيل ويحاول صبغ وجه الشمس الفاتر بلونٍ أسود،
يفتح العبد عينيه بصعوبة فلا يرى شيئاً في هذا الظلام غير
النار الخارجة من حجرة القديسة.

الراهب

خارج أسوار المدينة، في العراء، حيث الغابة تحولت
إلى محرقة عظيمة، اختلط الليل مع الصراخ والأنين
والرجاء المتذبذب بين قوة الأمل وقوة اليأس، بين أن تموت
وأنت راضٍ بنهايتك الحقيرة وبين أن تموتَ وأنت ناظمٌ على
كل شيء آمنٌ به يوماً. كل شيء في هذا الليل يوحى
بالموت، القمر المختبئ خلف سحبات الدخان القادمة من
بعيد، ورائحة الشواء المحترق حد التفحم، وعفونة الجثث
المتفسخة التي لم تصلها النار أو تلك التي سحبتها الحيوانات
المفترسة بعيداً عن نار القسيسين والعبيد، وما زال الليل
يعزف موسيقى الموت ويقرب إلى أذني هذا العبد الملقى
على ظهره بالقرب من كومة الطين الأسود المصاب
بالطاعون الأسود الذي يئن بانتظار نهايته العبيثية، يقرب إلى
أذنيه عواء الذئاب الخارج من معدتها التي لا تشبع أبداً.
الصوت يقترب حتى صار واضحاً صوت اللهات، وبعينين
نصف مفتوحتين رأى أنياب الذئب على مقربة من طرف
أنفه، رأى غرور الذئاب الثلاثة التي تدور حوله في عرضٍ

مسرحي محترف، بينما انشغل أصدقاؤهم بتقطيع العبيد الآخرين، ذلك الذئب الرمادي ذو الخصلة البيضاء راح يجر فخذ أحد العبيد مقتنعاً بها وراح يبتعد، ربما هناك صغار ينتظرون صيد أبيهم. أحد العبيد لم تنزل فيه الروح فصرخ بقوة :

– تباً لهذه الحياة .

تراجع عنه ذئبه خطوتين ونصف إلى الوراء، لم يكن خائفاً منه، لكنه ربما احترم تلك الصرخة وتلك الرغبة الأخيرة في الحياة ومن ثم تقدم ثلاث خطواتٍ وابتلع حنجرته.

كان هناك وعلى مقربة من مائدة الذئاب في عربةٍ مهجورة كان يختبئ راهبٌ بوذي رحّال كان يحاول الهروب من هذا العالم عن طريق التأمل، إلا أن صوت الذئاب كان أعلى من صوت عقله، مما جعله يتلصص على الذئاب من ثقب العربة المهجورة، وقلبه يفضحه بتسارع دقاته وعرق

خوفه يغري قطيع الذئاب التي بحثت عن مدخل ما إلى
العربة لكنها لم تفلح.

شاهد الراهب سوراً من النور يحيط بالعبد ويمنع
الذئاب من اقتراسه، وشيئاً فشيئاً راح نبض قلبه يخفت ويعود
إليه زمام عقله، وراحت السكينة تقترب منه، وشعر بقليلٍ من
الاطمئنان، فتوضحت له الصورة أكثر، وشاهد السور على
شكل امرأة تحتضن العبد وتغطيه بشعرها الطويل وتمسح
وجهه وشعره وتقبل الهالة السوداء تحت عينيه وتسير
بأصابعها على ساحل شفتيه وتهش الذئاب بيدها الأخرى كما
تهش الذباب.

واصلت الشمس شروقها اليومي بالرغم من كل
الفوضى العارمة التي حلت بالأرض، كاشفة قبح الليل
وتستره على الوحوش التي نهشت أجساد المرضى
المحتضرين ومُنْهية مأساتهم بطريقة لا تمت إلى الرحمة
بصلة. الوحوش التي عادت إلى مخابئها حاملة معها لحماً
كثيراً إلى صغارها المحظوظين، فليس كل يومٍ تولم لهم

السماء بكل هذا الكرم، وعادت العابرة إلى جنتها الفارغة من
الدفع وأنفاسها تقطر بالشفقة على ذلك الجسد المرمي في
العراء بعد سهر ليلةٍ أقل ما يقال عنها أنها ليلة كريهة من
ليالي الإنسان.

خرج الراهب من مخبئه وراح يتفحص جسد العبد
الذابل كورقة خريف تشرينية، وبإصبعيه السبابة والإبهام
فتح عينيه الواحدة تلو الأخرى وراح يتفحصهما ثم فتح فاه
ونظر طويلاً وقلب أذناه ومؤخرة رأسه وكشف عن صدره
وتتبع ذراعيه وقدميه، ثم سحبه من كتفيه وأدخله داخل
العربة وأغلق عليه الباب وراح يتمشى بين ما تبقى من جثث
المصابين بعد أن شبعت الذئاب، وأخذ دلواً كان مقلوباً على
وجهه هناك في موقدٍ ماتت فيه الأخشاب ولم يبق غير رماد
أجسادها وبعض الأواني الأخرى والقذور المختلفة الأحجام
مرمية في وسط مجموعة من الثياب الرثة، وتوجه نحو
البحيرة القريبة وغسل الدلو وملاه بالماء واقتلع بعض
الأعشاب من جرف البحيرة البعيد وعاد يحمل الدلو إلى
العربة، وفي طريقه أخذ قدرًا صغيراً والتقط بعض عروق

الأخشاب اليابسة التي راحت تنزلق من تحت إبطيه وهو يحاول السير سريعاً كي يصل بكامل حمله إلى العربة، وفي كل مرة يعود ليحمل ما يسقط منه في منظرٍ ساخرٍ من الكوميديا السوداء التي تتلاءم والموت الأسود الذي يغزو العالم.

حفر في الأرض حفرةً صغيرة وصفَّ بداخلها الحطب وأوقد النار ووضع الأعشاب في القدر مع قليلٍ من الماء وتركه على النار، وراح يعري العبد ويبلل شعر رأسه، وأخرج موسى من صُرةٍ قديمةٍ كان يخبئها داخل العربة وقام بحلق رأسه ثم قام بتعريته وأخذ قطعة نظيفة من لباسه وراح ينقعها بالماء ويمررها على جسد العبد في محاولة لتطهيره وتنظيفه، ثم ألبسه لباس الرهبان البوذيين البرتقالي الفاقع اللون الذي كان يشغل ثلاثة أرباع الصُرة، بعدها خرج وتفقد الأعشاب التي وضعها على النار فوجدها قد نضجت، فعاد بها وراح يسقيها للعبد بعدما أجلسه وأصق ظهره بجدار العربة، وبعد عدة محاولات لإدخال السائل إلى جوفه استسلم

العبد لرغبة الراهب وفتح فمه وسمح للدواء بالدخول إلى
مملكته المهذمة المنكوبة وقال بصوتٍ ضعيف:

- لم أرَ أحق منك أيها الراهب ولا أشد عناداً منك.
- لا تتكلم كثيراً وحاول توفير قوتك وطاقتك كي
تشفى أسرع.
- هه، وأيضاً بارعٌ في إضحاك الموتى، وهل هناك
دواءً للطاعون أيها الراهب؟
- لا مكان للعبث في هذا العالم، الأمور تجري
بأسبابها، ومادام هناك سبب فلا بد من وجود سبب
آخر يمنع السبب الأول أو يقلل من اندفاعه
ويحاصره، عدم معرفتنا بالدواء لا تعني عدم
وجوده، تماماً كعدم رؤيتنا لله فهي لا تعني أنه غير
موجود، وووو.. نسيت أن أخبرك بأنك لستَ
مصاباً بالطاعون.
- ماذا؟

- نعم، قروحك الخارجية تشبه قروح الطاعون، إلا أنك مصابٌ بحساسية الجلد نتيجة لتلوث وعفونة المكان الذي كنت تعيش فيه وسوء تهويته وعدم تماس جلدك مع الماء لفترة طويلة، إضافة إلى عدم تناولك الطعام الجيد، لكنك ستسترجع عافيتك خلال يومين فقط.

- لكن القسيس ورجاله قد قالوا إني مصابٌ بالطاعون، ورموني هنا بانتظار أن أنفق كأبي كلبٍ ملوث.

- إنه الله، هذه إحدى طرقه في خلاص أتباعه التي أعرفها، ببساطة هو قادرٌ على توريطك بدون أن تلتفت وقادرٌ على تخليصك بدون أن يلتفت الآخرون مهما كانوا أذكىاء، أنت عبدٌ مملوك أليس كذلك؟ وإلا ما كانوا ألقوا بك وسط العبيد الآخرين، وما هذه الأسمال التي كنت ترتديها إلا دليلٌ آخر على أنك من أراذل العبيد ولا خلاص لك من العبودية غير الموت، والطاعون موت، وها أنت الآن حر، وحتى

لا يعيدوك إلى العبودية فكرت أن أجعلك تشبه
الرهبان البوذيين فلن يتقرب منك أحد في هذا الزم،
ربما قد يعاملوك بعنف وقد تتعرض إلى شتائم قاسية
خلال عبورك المدن في طريقك إلى وطنك، لكن لن
يستعبدك أحد، وهناك طرق كثيرة لله لا أعرفها.

- وكيف تعرف أنه الله ولا تترك مجالاً للصدفة؟

- علمتني التجارب خلال ترحالي الطويل بأن لا مجال
للصدفة في حياتنا، فنحن نأتي إلى هذا العالم ولا بد
أن يكون ما مخطط له أن يكون، ونسير في طرق
عُبدت مسبقاً ولا نملك غير أن نسلوها، لم نر إنساناً
قط جاء من طريق آخر، ولم نسمع عن أحدٍ رفض
أن يرحل عن هذا العالم وفضل البقاء وخالف
السلوك البشري المتشابه حد الرتابة.

قبل يومين مات صديقي الراهب المتنور الذي
رافقني من الهند منذ عامين، لم يستطع أن يقاوم
الموت المرسل من السماء على شكل طاعون، كنا

قد اتفقنا أن نستكشف العالم سوياً وأن نتعلم من بعضنا وأن نبحت عن الحب الذي نثره الله في جميع أرضه، كان صديقي يبحث عن مطابقة اللسان لما في القلب، وعندما أدركها راح يبحث عن مطابقة السلوك لما في القلب واللسان، وأنا واثق أنه أدركها أيضاً رغم عدم اعترافه بذلك، ما أردت أن أقول إنه أوصاني بأن أحرق جسده عارياً كما ولد، وحرقت الجسد بالفعل وجمعت رماده في تلك الأنية الفخارية الصغيرة في الصُرة التي خلفك كي أدريها في مياه النهر المقدس، لكني لم أستطع أن أتخلص من ثوبه، ماذا تسمي التمسك بقطعة قماش برتقالية رثة؟ لا أدري أي إحساس قوي جعلني أحتفظ بالثوب، ماذا تسمي الاحتفاظ برداءٍ لأمرٍ لا تعرفه؟

أنت أيضاً تعلم أنه الله، فلا يعقل أن الله يدبر كل هذه الأمور لشخصٍ لا يعرفه.

عندما أدار الراهب ظهره، انتبه أنه كان يخاطب نائماً،
فقد استسلم العبد للنوم وبدأت على وجهه آثار سحابة فرح
مارّة وقد انقشعت منه آثار العبوس والقنوط والغضب مع
بعض القروح الغائرة تحت عينيه التي تحمل كل حزن العالم.
خارج العربة مازال القساوسة والعبيد ومن تبقى من
المدينة يجلبون النفائات البشرية ويحرقونها، ويتركون الذين
لم يقض الطاعون عليهم نهائياً طعاماً للجوارح والكواسر
والزواحف.

أقبل قسيس يتبعه رجالان نحو العربة وهو يطلب منهما
إصلاحها حتى تعود إلى نقل الجثث من جديد وبعد محاولة
قلبها صاح بهم الراهب أن يترفقوا قليلاً لأنه وصديقه
يحتمون بها من وحوش الأرض الرحيمة، فقال له القسيس
بعد أن تفحص وجهه ووجه صديقة النائم:

- ما بال صديقك يبدوا أنه مصابُّ بالوباء أيضاً؟

- إنه مصابٌ بطفحٍ جلدي فقط وسيتحسن بعد أن ينال قسطاً من الراحة، الأيام الماضية كانت صعبةً عليه، علاجه الراحة.

- المكان هنا خطرٌ في الليل وربما تنتقل إليكما عدوى الوباء، يوجد منزل صغير خلف البحيرة مات جميع سكانه منذ أسبوع يمكنكما المكوث فيه حتى تتحسن حالة صديقك.

- أنت تغمرني بلطفك يا سيدي، هل تدلني عليه؟

- سوف أوصلك إليه فطريقي نحو المدينة يمرّ به.

ثم أدار وجهه إلى تابعيه وقال لهما:

- أيها الرجال، هلا أحضرتما هذا الرجل المريض معنا من فضلكما؟

تقدّم منه الرجلان والتفت كلاهما للآخر وتراجعا فصاح بهما القسيس:

- لا تخافا إنها مجرد قروح جلدية لا أكثر.

فتح عينيه قليلاً على صوت دوي العربية وبكاء
الحصانين وصوت القسيس الأجش وهو يسأل الراهب:

— لما صديقك لا يشبهك؟

في إشارة إلى ملامح الراهب الصينية واسمرار لون
صديقه.

— لن تجد مثل هذا الجمال سوى في الهند

أجاب الراهب وهو ينظر إلى وجه صديقه المريض.

— إنه هندي إذن؟

لم يجبه الراهب هذه المرة وراح يجول بنظره على
ضحايا الموت العظيم الأسود الذي ضرب الحياة على
الأرض. كانت تسير بهم عربة القسيس بين الموت ورائحة
الذل البشري، بين جثث البشر المكومة على جانبي الطريق
ورائحة الأجساد التي تحترق بعيداً، تلتف بهم العربة خلف
البحيرة وعلى مسافة ليست بعيدة جداً ينزلهم ويمد إصبعه
السبابة ويشير لهم نحو البيت، ربما كان القسيس مؤمناً بأن
الموت مازال عالقاً على جدران المنزل المنكوب ولا بد لفترةٍ

ما كي تعود الحياة وتطرد شبح الموت عن المنازل التي
فارقها ساكنيها مجبرين ولم تزل عيونهم مشدودةً عل
حاجياتهم وذكرياتهم.

المدفأة مليئة بالحطب والقبو متخّم بالنبيذ والخمرة
والبيت الخلفي مازال عامراً بالدجاج والإوز، يدخل الراهب
باكياً وببيديه دجاجة مقطوعة الرأس ومنتوفه الريش ويشعل
المدفأة ويضع الدجاجة في القدر المعلق بها بعد أن يملأه
بالماء وهو يتمتم مع نفسه:

- لا بأس، ليس هنالك من عبث ولا جريمة، أنت
أخذت روحاً لتحیی به روح، صحيح أن لا أفضلية
لروح على روح لكنك لم تقترف ما يخل بتوازن
الكون، لماذا الدموع إذن؟ ربما لأنك ارتكبت جريمة
القتل، القتل الذي لا يبرره شيء، لا شيء يبرر
القتل حتى الإحياء، كيف تولد حياة من موت؟ لكن
هل عليّ أن أراه يموت دون أن أعمل شيئاً؟ من أين
لي بمعلم أشاركه كل هذه الشكوك؟ أليس من

المخزي أن أقع فريسة لكل هذا الشكّ وأنا بهذا
العمر؟ هل هو الله الذي يريدني أن ألتقط إشارات
من خلال إرساله هذا العبد ليبيّن لي بأني لم أصل
بعد؟ ربما عليّ تغيير الطريق؟ ما فائدة أن ينقضي
العمر سيراً في طريقٍ لا يؤدي إلى الله؟

يذهب ثانية إلى الخارج، يبحث عن أي نباتٍ لا يمتلك
الإحساس بالألم الذي ستسببه أسنانه في روح النبات
الصامت، حقل الذرة الكبير مازال يحتفظ ببعض رؤوسه،
يتبادر إلى ذهنه أن هذه الرؤوس حية، أليس كل ما في الكون
حيّ حتى ولو عجزنا عن سماع صراخه؟ حتى لو لم نستطع
فهم لغته؟ لم كان على الإنسان أن يقتل كي يعيش؟ لم لا
يعتاش على الهواء؟ هل يقتل الإنسان الهواء حين يتنفسه؟ أم
أنّ هناك تفسيراً ما؟ كم عليه أن يرتحل كي يحصل على ذلك
التفسير؟ كم حياةً سيعبر حتى يصل إليه؟

راح الراهب يتأكد من إغلاق الأبواب والشبابيك
بإحكام ويوقظ صديقه المريض بعد أن أعد المائدة بتأنٍ وكأنه

يريد تطبيب روح صديقه مع تطبيب جراح جسده الهزيل،
وضع حساء الدجاجة أمام صديقه وفي وعاءٍ آخر وضع
الدجاجة المسكينة كاملة ووضع أمامه ثلاثة رؤوس من الذرة
وأشعل شمعةً كبيرة في منتصف المائدة وفخاريتين من الماء
وقنينة نبيذ فاخرة وكأسين معدنيين، وكم كان العبد سعيداً
بتناول وجبة تشعره بأنه مازال آدمياً ومازال هناك متسعٌ
للفرح، ولما دارت الخمرة برأسه نهض وراح يردد بعض
الأغاني الكاشتية القديمة والتي راح الراهب يرقص على
أنغامها وتشاركها الرقص والعردة والصياح وكأنهما يخرجان
الحياة المكبوتة من داخل صنمين، صنم الإله الذي كان
الراهب يبنيه كل هذه السنوات وصنم العبد الذي بناه
الآخرون في روح صديقه الأسمر.

في الصباح التالي حين أفاق الراهب لم يجد صديقه
الجديد، تفقده داخل البيت أولاً وبنظرة واحدة على باب البيت
لاحظ أن صديقه في الخارج لأن ترباس الباب الداخلي كان
مفتوحاً، فخرج يبحث عنه حتى وصل إلى البحيرة فوجده
يتصارع مع سمكة كبيرة من سمك البحيرة في محاولة إلى

إخراجها، وبعد مساعدة منه استطاعا أن يخرجاهما، فأمسكها صاحبه وألقاها بجانب أختها الأخرى التي كان قد اصطادها فجراً. كان الراهب حزيناً وكان حزنه بادياً على مرآة وجهه الصافية، كان وجهه من تلك الوجوه التي تكون كورقة بيضاء يخط عليها القلب حالاته بكل وضوح، بالرغم من ابتسامته وهو يخبر صاحبه عن سعادته لرؤيته متعافياً فنظر له صديقه قائلاً:

- يبدو أن المرض كبغيّةٍ محترفةٍ تنتقل في حانتها وتوزع ابتسامتها على جميع الوجوه.

- لماذا تقول لي هذا الكلام؟

- لأنك تبدو متعباً.

- لستُ مريضاً، أنا حزينٌ فقط.

وأطرق برأسه كمن يحاول الهروب من دمةٍ لحوحة.

- ولماذا أنت حزين؟

- لأنني ارتكبت بالأمس ثلاث خطايا كبرى، وكأني

أسير في دوامة، إنها خيبة أمل كبيرة، أنا حزينٌ من

- أجل نفسي - يبكي هنا ويدير وجهه باتجاه الشرق -
خجلٌ أنا جداً من المبجل بوذا فلقد كسرت ثلاث
قواعد لا يكسرها أي طالب جديد.
- وماذا فعلت لتستحق كل هذا الندم؟
- قال بوذا لا تقتل وقتلت روحاً وقال لا تأكل بعد
الظهر وأكلت وقال لا تسكر وسكرت.
- إن كان في المعصية عزاءً لك فلقد شربت الخمر
وهي حرامٌ في ديني وغنيت والغناء حرام ونمت
عن صلاة الفجر وهي حرامٌ علي فهذه ثلاث مقابل
ثلاث.
- وهل لك دينٌ أيها العبد الغريب المجهول؟
- ما رأيك أن تحضر الحطب وتشعل النار بينما أعد
السمتين وسأحكي لك قصتي، عندي قصة مثيرة
تنفع أن تكون حكاية الجدات لأحفادهن في ليالي
الشتاء، وإن وجدت جوهرتين داخل السمتين فلن
أقتسمها معك لأن دينك يحرم الجواهر.

فهب الراهب رأسه بالإيجاب مع بداية ابتسامة غيرت
معالم الحزن الذي كان يحيط بروحه الشفافة.

الهجين

رائحة شواء السمك أعادت للأرض المنكوبة طعم الحياة، وأبعد دخان النار طيور الموت التي تحوم فوق الجثث المتراكمة على وجه الأرض بعد أن عجز باطنها عن استرداد كل هذا الكم المتدفق من البشر البائسين، حتى النار راحت تنطفئ في وسط حريق الموت، تاركة جثث هذا الذي يدعي بأنه سيد العالم مشوهة نصف متفحمة ونصف متفسخة، حتى الديدان تعبت من الأكل وراحت تتملل من هذا العمل الشاق الذي يعيد التجانس للكون.

مع عودة الراهب فتح العبد فمه وقال:

- أنا مزيجٌ من صراع الآلهة، من أم قشتالية مسيحية، سبية حرب انتصر فيها أبي العربي المسلم وكننتيجة لهذا الانتصار أصبحت أُمي الخاسرة، عبدة، وأبي المنتصر، السيد الحرُّ، الذي لا يُعصى له أمر.

ولدتُ حرّاً لأنني بن أبي وبقيت أُمي "أمة" لا يجوز لها الخمار الذي يستر نساء أبي الحرائر، تمشي في

الأسواق حاسرة الرأس والقدمين كي لا تشبه السادة المنتصرين، وقسمنا أبي نحن الإخوة الخارجين من صلبه تقسيماً عادلاً، أولاد الحرائر للتجارة وأولاد الإمام للحرب، كبرتُ وأنا أرى إخوتي يلعبون بالديباج والأحجار الكريمة، يجرون أذيال حريرهم على ظلّ سيفي الذي يقطر دماً دفاعاً عن أحقية أبي بالحرية وعن سرمدية عبودية أمي، لم أعرف غير الحرب التي لا تنتهي، فأعداء أبي كُثُر ويتزايدون مع كل دينار ذهبٍ جديد يكسبه إخوتي، كم وددتُ لو كانت أمي تركتني لمصيري بلا تلك الدروس العبثية عن الحب الذي يحمله المسيح لكل البشر، لم أشعر بذاك الحُب الأسطوري إلا في حضنها المسلوب، فأخوالي لا يختلفون عن أعمامي كثيراً، فلقد قسموا أولادهم كما قسمنا أبي، ويقتلون منا بقدر ما نقتل منهم، ويزنون بنسائنا كما نزن بنسائهم، وقسيسهم يذكرهم بقلب يسوع العاشق لكل البشر أيام الآحاد المتعاقبة كما يذكرنا إمام مسجدنا بسماحة الإسلام

في كل جمعة، وكنت أسأل نفسي إن كان محمد
ويسوع أصدقاء فلم نحن أعداء إذن؟

قبل ثلاثة أعوام سقط حصاني ميتاً في وسط
المعركة، أسقطني على تلّ من الأجساد التي تمتاز
أعضاؤها بين أعمامي وأخوالي، كانت السماء
تمطرُ سهاماً، ولا أدري أين فقدتُ ترسي، فرُحت
أزحف بين الجثث أبحث عن ترسٍ آخر، رأيت كفاً
مسيحية تمسك بالصليب وتحاول الالتصاق بجسد
مسلمٍ بلا كف يصرخ الله أكبر وهو ينتظر عزرائيل
كي ينقله من هذا العالم البائس منتصراً على أعداء
الله، أدخلتُ رأسي وسط المسلخ البشري حذراً من
أقدام الخيل الحديدية التي عبرت بالقرب من رأسي،
وجدتني أواجه رأس رجل مسلمٍ مقطوع، كان
الرأس يجلس على الأرض كما كان يجلس على
جسده بنفس الثبات وكان مفتوح العينين، كانت عيناه
سوداوين وأثر السجود على جبينه مع بواذر شيبٍ
على لحيته الجميلة، كانت ملامح عينيه خائفة أو

ربما هكذا خُيِّلَ لي، عيناه مشدوهتان كأنما كان
مدركاً بأن هذا السيف القادم سيجز رقبتَه بلا شكّ،
كانت شفّتيه يائسة، نظرتُ جيداً في وجهه فرأيتني،
رأيت عينيّ وبوادر الشعر الأبيض على جانبي
لحيتي ورأيتُ شفّتيّ اليائستين، كُفرتُ، كُفرتُ بكل
شيء، وقتلت الفارس الأقرب إليّ من غير أن أنظر
إلى عينيه أو لبسه، لا فرق، فهو من لحمي ودمي
من أيّ جهةٍ كان، وأخذت حصانه وخرجت من
المعركة ورجعتُ إلى أمي، لم أجدها، وجدتُ أحد
إخوتي التجار الذي نظر إليّ بازدراء وهو يقول:
يبقى الهجين جباناً مهما حاولت أن تجعل منه رجلاً
حُرّاً، هل انهزمت وتركت جيش الله يقاتل الكافرين
أخوالك، تأكد أن الله سيهزمهم بسواعد الأحرار.
أمسكت بتلابيبه وجلستُ على صدره وأوشكتُ أن
أقتله لولا تدخل عبّيده وإبعادي عنه ومع وصول أبي
في تلك اللحظة تركني العبّيد فصرخ أخي:

- انظر ما فعل بن الأمة يا أبي؟ إن لم تعاقبه فلن
يسلم من عقابي.

- دعه، فموت أمه قد صدمه، ولي معه كلام آخر
بعد أن يجف حزنه.

- وهل ماتت أمي؟

- نعم، ودفناها كالكلاب في مقابر العبيد.

أحسستُ بأن الحياة كلها ماتت تلك اللحظة، فلم أعبأ
بابتسامة الشماتة الخارجة من فم أخي مع كلماته
التي تشبهه، لا أستطيع أن أشبهه بشيء آخر غير
كلماته، تركتُ البيت ولم أذهب إلى قبرها، لم أشأ أن
أراها "أمة" حتى وهي في قبرها، خرجتُ من
المدينة وأنا لا أتذكر من أمي إلا كلماتها التي كانت
ترددها في أذني ليل نهار كالقرآن:

- إياك أن تتزوج والحرب بعد لم تنته، حتى لا
تُنجبُ طفلةً قد يخذلها القدر وتكون "أمة".

وجدتُ نفسي في كنيسة أمي خارج المدينة، القسيس
رجلٌ طيب، لم ييأس بعد من محاولة تنصيري،
بقيت تلك الكنيسة لأن رعاتها كانوا يدفعون الجزية
على مرّ القرون حتى جاء ذلك اليوم الذي أوقف هذا
القسيس دفع الجزية بعد لم يبق للمسلمين غير هذه
الأرض "غرناطة"، وها هي اليوم تؤدي الجزية
صاغرة كما استصغرت الأقوام الأخرى، وقديماً
قال العرب "كما تدين تدان"، المضحك في الأمر أن
الأندلس بعدما تجزأت إلى ممالك وراح يحكمها
ملوك الطوائف راحوا يدفعون الجزية لملك قشتالة
كي يحميهم من العرب الآخرين حتى جاء ذلك اليوم
الذي لم تعد أموالهم تحميهم بعدما أضعفوا بعضهم
البعض وصاروا فريسة سهلة للقشتاليين الذي
استنزفوا العرب مادياً وبشرياً وأخذوا بثأرهم بقسوة.
- نعم رأيت بقاء الكنائس وحرية ممارسة المسيحيين
لطقوسهم خلال ترحالي في بلاد المحمديين عبوراً

من الصين حتى أوربا، لكني لم أعلم أنهم يدفعون
الجزية كي تبقى كنائسهم مفتوحة.

- وكيف استطعت أن تعبر وأنت بزيك هذا؟ ألم
يتهموك بالتبشير للبوذية؟

- تلك قصة طويلة سأحكها لك لاحقاً، أكمل قصتك.

- نعم، لكن لا ترمي رأس السمكة فأنا أحب أن آكله.

ومدّ يده وتناول رأس السمكة ووضعها على حافة
الموقد كي يزداد نضجاً، هو يحبه ناضجاً جداً، ثم صب
كأسين وناول صديقه الكاس وأكمل:

- خبأني الكاهن في قبو حجرته السري، بين براميل
الخمور وصناديق النذور وأدوات جلد الذات التي
كان يستخدمها لإخراج الألم كلما أحس أنه أخطأ
بحق الله، وبعد ثلاثة أيام صار حني بحقيقة أنه خائف
من جيش أبي الذي جاء وفتش المكان وهدده بغلق
كنيسته وشنقه على بابها إن هو علم بمكاني ولم
يخبره.

- اسمح لي بالمقاطعة، لكن تبادر إلى ذهني سؤالٌ
مُلح: لماذا لم يعمل هذا القسيس على شراء حرية
أمك؟ ألم يكن يملك المال لفدائها أم أنه حاول ولم
يفلح؟

- الإسلام يا صديقي لا يسمح ببيع الأمة التي تلد لسيدٍ
حر ولا يجوز لمالكها أن يهبها لأحد، بالطبع يمكنه
أن يعتقها ويعطيها حريتها لكن أبي كان متزوجاً من
أربعة نساءٍ حرائر، فلا يمكنه الاحتفاظ بأمي بعد
عنقها، ولأنه يريد منها أن تلد له وقوداً للحرب
كباقي إمانه فإنه تركها هكذا عبدةً له في النهار
ووسادةً له في الليل.

- وهل ولدت له غيرك؟

- أنا الخطأ الوحيد الذي خرجتُ من رحم أُمي سالماً،
كانت تُسقطُ أولادها الواحد تلو الآخر كشجرة تقف
وسط الخريف الأزلي، وكانت تخبر أبي أن رحمها
لا يتحمل ثقل الأولاد، وكان أبي لا يصدقها ويحاول

مجدداً وكانت هي لا تتعب من قتل أبنائها، وكان هو لا يتعب من جعلها تكره نفسها أكثر وأكثر. كلما كانت تنظرُ في عينيّ كنت أدرك أنها ترى خطأها ماثلاً أمامها وتندم أنها تركتني أكون وقوداً لحرب أبي، وأعتقد أنها كانت تريد أن تشتري حريتها بإنجابي وبعد أن أدركت أنها لن تتحرر قررت ألا تنجب عبيداً غيري وترسل أبنائها الآخرين إلى الحرية في عالم آخر.

ثم بعد ذاك أرسلني القسيس إلى قسيس آخر، صديقه في قرطبة. لم تكن الطريق إلى قرطبة صعبةً نظراً لأنني أجيد اللغة القشتالية التي ورثتها عن أُمي ولباس الرهبان الذي وهبني إياه القسيس ومعرفتي القوية بالمسيحية وكل الترانيم التي كانت أُمي تردها وهي تقضي الليالي برفقة المخلص الذي لم يأت لنجدتها.

كان الفلاحون يستوقفوني لأبارك محاصيلهم التي
تغذي الحقد في قلوبهم على مالكي الأراضي
الجشعين، ويستوقفني الجنود كي أبارك لهم حربهم
المقدسة ضد البرابرة المسلمين أعداء الصليب،
نساء، رجال، أطفال، عجزة، عيَّارين، مُرابين،
تجار رقيق، بغايا، الكل يطمع بمباركة الرب كي
يستمر بعمل ما تعود على عمله.

حمى الدين كبست على صدر الهواء في هذا العالم
كالجاثوم يا صديقي، الكل محتاج إلى ما يدين به
حتى ولو كان خرافة، والكل كَفَرَة بعيون الآخرين،
ولا أدري إن كان هناك إنسانٌ لا يؤمن بأي إله فأنا
لم ألتق أحداً بعد وأتمنى أن ألتقي بأحد، حتى أرى
هل هو متعصب لكفره كما يتعصب المتدينون لدينهم
الذي لا يرون في هذا الوجود غيره وغيرهم، وكأن
الله وَجَدَ فقط لكي يخلقهم ويختفي بعد ذلك.

وصلت إلى خانٍ وسط السهل الكبير والواسع
الممتدّ حتى مسافةٍ ليلتين من قرطبة، كان وصولي
أوائل شهر آب والشمس حائرة بين العصر
والغروب، ربما كانت مشغولة بلملمة ردائها الذي
اتسخ من وجوه المؤمنين استعداداً للخلاص من يومٍ
بشري آخر.

لا بد لك من الانحراف يميناً عن الطريق الكبير ثم
تنحرف يساراً في سكةٍ ضيقة بين أشجار الزيتون
ذات الورق الأبيض حتى تصل إلى ذلك الخان، لقد
وضع صاحبه صليباً كبيراً في الطريق الكبير وكتب
تحتة: "إن كنت تشاق أن تحلم بأمان تحت حراسة
الصليب". وعلى السكة الفرعية وضع صليباً أصغر
كتب عليه اسم الخان. كانت طريقة ذكية بلا ريب
في جذب المسافرين المصابين بحمى الدين كي
ينزلوا في هذا الخان "المقدس" ويستمر يومهم
مرتبطاً بالدين حتى وهم نيام.

استقبلتني صبية لم يتجاوز عمرها السابعة عشرة
وطلبت مني مباركتها ومباركة أبيها صاحب الخان،
وبينما كنتُ مشغولاً بقراءة ترانيم أمي التي كانت
تباركني بها أقبل صاحب الخان وقبل يدي وشكر الله
على هديته له بمروري على خانه ورتب لي أفضل
غرفةً لديه في الطابق العلوي، بعدها أحضرت لي
الصبية طعاماً جيداً وتمنت لي ليلة مباركة وتركتني
أتفقد الغرفة التي حجبها عني الجوع، كانت صغيرة
بسريـرٍ واحدٍ نظيفٍ وخشبـتين متقاطعتين تشكـلان
صليباً في السقف أعلى السرير وشباك يطل على
مساحة واسعةٍ من الفضاء الأخضر وباب خشبي
قديم يفصلني عن النزلاء الآخرين الذين وصل
صوتهم في هذه اللحظة وهم يطلبون الخمر
ويحاولون معاكسة الصبية بكلام بذيء.

الشمس قد رحلت عن نافذتي وبدأ السكون يطبق
على المكان وأنا الممدد على ظهره كالمـتخشب على
دكة الموتى بلا حراك، لا أستطيع النوم، علمتني

الحرب أن أنام يقظاً كالذئب بعين واحدة، تعلمك
الحرب أشياء لا تحتاجها بعد الحرب وتلازمك
كذلك حتى آخر حياتك، تنام وعلى رمشك يتأرجح
الخوف من شبح العدو، تغفو وتحلم بأنك ممسكٌ
سيفك تطارد الكوابيس ولا تعلم بأنك داخل كابوسٍ
يطاردك، تهرب، تبكي، تبحث عن وجه أمك
وتستعد أن تمسك به فيأتي إليك وجه عدوك
ويضربك وأنت في لحظة ذهولٍ لم تكن مستعداً
للدفاع عن نفسك.

جلستُ في سريري كما تثبُّ الكوبرا وبقيت متسماً
أتبعُ صوت أربعة أقدامٍ تنزل السلم بحذر وتفتح باب
الخان الفرعي وتخرج حتى مرّت من أمام نافذتي
ودخلت في الإسطبل الصغير، وقبل أن يشعل
الشمعة الخائفة التي معها كنت أقف خلف الإسطبل
بعدما عبرت من النافذة وتسللت حتى ألصقت
ظهري على حائط الإسطبل، ومن خلال فتحة
صغيرة بالحائط رأيت صاحب الخان مع ابنته وهو

مازال يتلفت حتى وهو داخل الإسطبل وبعد أن
استجمع قواه قال لها:

- غداً يا ابنتي هو "تيشعاه بنأف" ذكرى خراب
الهيكل وهو يوم صيام يحرم فيه الاستحمام والأكل
والشرب والضحك والتجمل والمصافحة، علينا أن
نستعد له جيداً ولا أوصيك بأخذ الحذر من النزلاء
والغرباء، فلقد رأيت ما فعل العناد بوالدتك حين
رفضت أن تعلن تنصرها وتعيش متخفية مثلاً، لقد
سلخ الناس جلدها كما تسلخ الخنازير بمباركة القس
الذي باركنا وهنأنا بعد أن أعلننا تنصرنا أنا وأنت.

- لكن لماذا بقيت متمسكة بهويتها اليهودية ولم تعمل
بنصيحتك؟

- لأنها ببساطة تعبت من آلام هذا العالم ومن
شروره ومن وحشية البشر التي قست عليها وهي
بعد رضيعة وبدأت رحلة الشتات من بلدٍ إلى بلد
ومن طرد إلى طرد ومن ترحيلٍ إلى ترحيل،

يصعب يا ابنتي أن تجدي يهودياً واحداً ولد بأرض
ومات بنفس الأرض، كتب علينا الشتات والعيش مع
جلادينا حتى نعود إلى أورشليم الموعودة ونعيش
هناك بأمان.

- ومتى نعيش بأمان يا أبي؟

- عندما يشاء الله يا ابنتي؟

- ومتى يشاء الله؟

- عندما يتيقن من إخلاصنا له.

- وكيف يصل الله إلى هذا اليقين؟

- عندما لا تنسين أننا آخر اليهود هنا، آخر اليهود
السفاريديم وأننا قبلنا أن نكون نصارى حتى لا يتم
قتلنا، وعليك أن تخبري أطفالك بذلك ويخبروا
أطفالهم حتى يصل الله إلى قناعة بأننا نبذل كل ما
نملك في سبيله وفي سبيل بقاء دينه الشرعي،
الوحيد، الصحيح في هذه الأرض. أما الآن فعلينا
قراءة سفر مراثي إرميا.

عدتُ إلى حجرتي وأنا لا أفهم لماذا يستمر الله
بتغذية هذه الحرب بإرسال مزيدٍ من الأنبياء؟ ما
ذنب الإنسان كي يتعذب كل هذا العذاب لأنه يعتقد
بشيء لا يختلف كثيراً عما يعتقد به الآخرون، ماذا
لو أننا نترك الإنسان حراً باعتماد ما يعتقد، ألن
نستطيع العيش بسلامٍ أكثر وبفرحٍ أكثر وبرفاهٍ أكثر.
في الصباح التالي وأنا أهم بالخروج سمعتُ صراخ
الصبية وهي تستغيث بأبيها وصوت ضحكاتٍ
مستهترة تمتزج مع الاستغاثة لتجعل مذاق الصباح
مرّاً في روعي المتخمة بالمرارة حد الكفر، رحت
أجر قدمي وأحاول الابتعاد كي لا يصلني صوت
الصراخ، فوجدتني أرجع وأدخل الحانة لأجد
مجموعة من تجار الرقيق يتناوبون التحرش ببراءة
الطفلة بعد أن أحاطوها، وكان أبوها يقف مكتوفاً في
الزاوية وهو يبكي ويستغيث هو الآخر برجولتهم،
بدينهم، بشرفهم، بربهم أن يتركوا الصبية لحال

سبيلها وما إن رأوني حتى ساد صمتٌ في المكان
وبعدها تقدم مني أحدهم وقال:

– ماذا تريد أيها القس؟

– أريد أن أصلي، فهلا شاركتُموني الصلاة؟

– لسنا بحاجة إلى الصلاة،

رد أحدهم من بعيد وكان يمسك بذراع الصبية وتقدم
نحوي وضربني على خدي الأيمن قائلاً بصوتٍ
سمج:

– أدر لي خدك الأيسر يا أبتاه، أليس هكذا يأمرُك
الرب؟

لم أتذكر سوى وحش الحروب المحبوس في داخلي،
الذي يشتري هذه اللحظة بكل حماقات الدنيا ونسيت
تتكري ولباسي المزيف وأخلاق الكهنة التي كنتُ
أوثق بها جماح غضبي ولكمته على أنفه وضربت
الآخر في بطنه وحاولت أن أصل إلى سيف الرجل
الثالث لكنني تعثرت وانهالت عليّ اللكمات

والركلات والبصاق، ولم أستطع أن أفعل شيئاً وأنا
أرى الوحوش البشرية تعيد اغتصاب الفتاة أمام
عيني أبيها العجوز مرّة بعد مرّة بعد مرّة، حاول
العجوز النهوض فسقط، فنهض مرّة أخرى، أنهضه
اليأس هذه المرّة، حاول أن يفعل شيئاً، أي شيء،
لكن أحدهم كان شريفاً جداً فوضع حداً لمعاناته
وطعنه في قلبه فسقط على الأرض وهو يحاول أن
يبعد نظره عن عيني صغيرته وراح يتشرنق حول
نفسه وسكنت أنفاسه أخيراً بصمتٍ وقور، بعد ذلك
راحوا يتشاورون فيما بينهم حول القس المُكسّر على
أرضية الحانة، أسمعهم يهمسون:

- إنه ليس قساً بالتأكيد، فالقساوسة لا يعرفون
العراك.

- لا بد أن يكون عبداً هارباً.

- ربما هو أحد البرابرة الجواسيس.

- دعونا نبيعه.

– نعم سنبيعه مع هذه الصبية ولتنتفعه مروّته ونسكر
بثمنه.

– أحرقوا الخان بعد أن تنتهوا من عبثكم أيها
الخنازير البرية،

صاح بهم كبيرهم وتعالّت الضحكات وهم يجروننا
كالخرقة البالية وبدأوا بإحراق المكان .

كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها الأموات
بالنهار، رأيتُ اليهودي العجوز يقف في باب خانه
وهو يحترق، لا يشعر بالنار وهي تأكل كل شيء،
كان مشغولاً بتوزيع النظرات، تارةً كانت عيناه
تحرسان ابنته الصغيرة وتارةً تضمد جراحي، قبل
ذاك اليوم كنتُ أرى الأموات فقط في كوابيسي،
تطاردني وأطاردها ويطاردنا الموت.

سرنا طول النهار بلا توقف، كنّا سبعة عبيد، أنا
والصبية وخمسة عبيد أفارقة آخرين، وكانوا هم
تسعة، ثمانية خنازير وضبع، لا أدري لماذا بدا لي

بأن رئيسهم يشبهه، ربما لأنني لم أكره مخلوقاً قط
مثلما كرهت الضبع ذلك الحيوان المفترس الكريه
الرائحة، أكل الجيف والقمامة، المولع حد القرف
بنبش القبور وافتراس الموتى، صاحب الرقبة
القصيرة والظهر المحدودب والشعر الخشن المقرز،
ليس لإجرامه حد، فهو إن هاجم قطيعاً من الغنم لا
يكتفي بسد جوعه بواحدة ولا اثنتين، بل يقتل القطيع
بأجمعه، وقد لا يكون جائعاً من الأساس وإنما دافعه
لقتل القطيع التلذذ فقط بالعبث وشرب الدماء، إنه
حيوان جبان حينما يكون لوحده، ولا حدَّ لجبروته
ولا لظلمه عندما يكون مع قبيلته، إنه الحيوان الأقدر
على الإطلاق، لكنه ليس المخلوق الأقدر.

اليهودية

عند المساء وعلى مقربة ليلة من قرطبة، أوى بنا
النحاس إلى كهف صغير، حشرونا في المؤخرة
وراحوا يشعلون النار في المقدمة، اقتربت مني الصبية
وهمست بأذني:

- سيحرقوننا.

- لا، أنت خائفة فقط، لا عليك، أغمضي عينيك
وحاولي أن تنامي.

- أنت لا تفهم، لقد سمعتهم يتكلمون عن ختم ما
سيختمون به جباهنا كي نصبح عبيدهم إلى الأبد.
إنهم يشعلون النار من أجل ذلك. لكن رئيسهم أشار
عليهم بختنا في مكان آخر وترك جباهنا لمالكيننا
الجدد كي لا يتردى سعرنا.

- هل تسمعين صوت المطر؟

- نعم، إنها تمطر بغزارة في هذا الوقت من السنة
ويكون المطر دافئاً، كنتُ أحب الرقص والجري
واللعب والسماء تمطر.
- لكن هل أنصت يوماً لصوت المطر فقط؟
- أممم، لا أدري!..
- عندما يتساقط المطر فإنه يشبه تساقط أعواد الناي،
هي ذات الموسيقى في كل زمانٍ ومكان، لا يختلف
الصوت إلا باختلاف السقف الذي يغطي رأسك،
قصرًا كان أم خاناً أم كوخاً خشبياً، كهفاً كالذي
يحتوينا الآن، سقفاً من سعف النخيل يختبئ تحته
عاشقان أم بيتاً طينياً كالرحم الأول للإنسان، تختلف
النغمات باختلاف السقف، لكن الموسيقى واحدة. كي
تتخلصي من تيه النغمات تخلي عن كل السقوف،
دعي رأسك عارياً تحت المطر وانصتي، ستجدين
النغمات تمتزج برأسك وتتسلل إلى داخل روحك.

أسندت ظهرها على حائط الكهف وراحت تنظر
لي غير عابئة بالوحشين القادمين تجاهها ولم تشعر
بأيديهما وهما يكشفان مؤخرتها، لكنها صرخت عندما
التصق الحديد الأحمر بجلدها، صرختها كانت مطراً
بلا سقف، أضافت نغمةً أخرى على نغمات المطر
المنهمر، صرخت كما شجرة تصرخ من البرد
منتصف شباط اشتياقاً للربيع، أما أنا فبقيت مشدوداً
للموسيقى حتى ساعة أن قربوا الختم من كتفي وحينما
أحرقني الحديد لم أتذكر أنه أصابني جرحٌ ببساطة هذا
الجرح من قبل ورحت أتابع صوت المطر.

عند مساء اليوم التالي دخلنا قرطبة، بعدما مشينا
طوال النهار، سمعتُ من أبي أنها أجمل ما خلق الله
وكان يحلم أن ندخلها فاتحين من جديد، تُفرشُ المفارش
تحت أقدام خيولنا ونُتوجُ كأبطالٍ أسطوريين ونتصدقُ
على أهلها ببعض حركات شفاهنا التي تشبه
الابتسامات، دخلتها عبداً أجرُّ أشباح خيبات أجدادي
وإرث الهزيمة المرّة لحربٍ ليست حربي، ما دخلي أنا

بالأندلس، لم أحتل أرضاً غير أرضي، وكيف تكون
حربي مقدسة وأنا السارق ما ليس لي، لو كنت دخلتها
مسالماً وامتزجت بأهلها لأصبحت أرضي وأرض
أولادي وأحفادي، ثم لماذا تكون الأرضة مقدسة،
أليست هي مجرد ذرات تراب لا غير، أنا هو المقدس
من الأبد وللأبد.

قادنا النخاس إلى حانة الخمر واللبغاء يديرها
رجل طيب، الرجال الطيبون تعرفهم عندما تقابلهم،
يبدون أشراراً جداً لكنهم يحملون أصفى عيون ممكن
أن تراها، خاطبه الضبع وكأنه يستغفله:

– ها قد أحضرتُ إليك أرخص عبدٍ كما أوصيتني –
ودفعني نحوه – أعطني برميل نبيذٍ أحمر واحداً فقط
وخذه، إنه يساوي أكثر من هذا الثمن، لكنني أريد شراء
صداقتك بأي ثمن.

– سوف أعطيك نصف برميل، حتى تتعلم أن تجلب لي شيئاً مفيداً في المرة المقبلة وليس مجرد قطعة لحم مشوّهة.

باعدوني بثمانٍ بخس، نصف برميلٍ من النبيذ الأحمر، أيّ قيمةٍ تبقى للحياة حينما لا تساوي بكل وجودك وأحلامك وصخبك أكثر من نصف برميل من النبيذ؟

راحت ترقبني كأنها ترقبُ الكتف الوحيد في الحياة الذي يشبه حائط المبكى، تودعني بنظرة لو سقطت على أي جبلٍ ذي قلب لساخ من على وجه الأرض خجلاً من عجزه عن حمايتها، رحت أفكر بنصف البرميل الذي سيتبخر بعد أقل من ساعة وكم تمنيت لو كانت حياتي برمتها تتبخر بسرعة نصف البرميل، هارباً من نظراتها التي تخترق كل ذرة من ذرات وجودي.

– لا يهمني أن تكون ولدت عبداً أو أميراً أو نبياً أو ابناً للإله، أنت عبدي الآن، سيعلمك العبيد الآخرون

صناعة النبيذ وستمكثُ هناك في القبو حتى تموت، هذه الحياة التي تنتظرك فلا تحلم بغير ذلك كي لا تموت سريعاً.

هكذا أخبرني الرجل الطيب صاحب الحانة وهو يتركني بين يدي أتباعه البائسين، تلك النوعية من الأتباع التي تتبع رائحة الجيوب وتتفانى في خدمة أصحابها حتى الهلاك، وهم لا يرون سوى لمعان ما في الجيوب، دون أن يستمتعوا بلذة ملمس تلك القطع اللامعة، وبعدها أدار السيد الطيب ظهره لمستقبل أيامي أخذني الأتباع إلى خارج المدينة إلى القصر الريفي الشاهق الذي يتوسط غاباتٍ من الزيتون والعنب ورموني بالخلف حيث حظيرة العبيد، ثم أخذني عبداً وأدخلني داخل قبو كبير لصناعة النبيذ، كان هناك ثلاثون عبداً آخرون، توجه نحوي عبداً طيب، عيناه جميلتان، أنفه واسعٌ كالبحر وشفته عريضة كرصيف الأحلام، يملك صوت الماء ورائحته ذكرتني برائحة

التراب المبلل بالمطر، كان هو المسؤول عن القبو
هناك، قال لي:

— لا عليك، ستعتاد الحياة هنا حتى لا تدري هل عشت
قبلها أم لا.

بقيت في ذلك القبو لسنتين ونصف، لا أذكر منها غير
رائحة الخمر وعيني صديقي الطيب وصمتي، نعم،
أذكر أنني كنتُ خارج درب الأحلام، هل تصدق أنني لم
أرَ حتى حلمًا واحدًا، لم أحلم بأي شيء، والظاهر أن
القبو بعيد عن درب الحلم ودرب الحرية. وفي يومٍ ما
أخرجونا من القبو ووزعونا على تجار الرقيق وأبقوا
على صديقي الطيب داخل القبو، ربما لم يروه لأنه
صار يشبه برميل الخمر، قال إنه ولد في ذلك القبو،
وأنه يرى الدنيا كلها قبوا، ويشعر أنه سيدفن في ذات
القبو، وكنتُ أنفي ذلك وأعلله بأنني لم أسمع قط بأن
الرحم الذي تولد منه الحياة يمكن أن يتحول إلى قبرٍ
ويرجع الحياة التي وهبها.

علمنا أن مالکنا الطيب صاحب الحانة قد مات وجاء
ابنه ويريد أن يهرب من حمى الحرب نحو إنجلترا
فراح يحول كل الأملاك التي ورثها إلى سبائك يسهل
حملها، فراح يتخلص من عبيد أبيه ويرجعهم إلى
رحم معاناتهم لتجار الرقيق حتى يولدوا من جديد في
معاناةٍ أخرى، وسار بنا التجار من قرطبة إلى إشبيلية
وباعوني إلى القديسة التي خلصني الله منها بالطاعون.

راح الراهب يصلح النار التي خمدت، والشمس التي
توسطت الكون هذه اللحظة بدت كئيبة ككل شيء في هذه
البلاد ما عدا قلوبهما اللذين مازالا ينبضان بحب الأرض
والسما، حتى الطاعون لم يعد سيئاً جداً، فقد جمعهما مع
بعض وتعلما من بعضهما أن هناك قلوباً تتشابه في داخل كل
هذه الوجوه المختلفة.

- لقد مررتَ بكثيرٍ من الألم كما مرَّ به المجل بوزا
وأنا واثقٌ من أنك ستغير العالم.

- كل ما أتمناه أن أبتعد بعيداً عن هذه الفوضى، أحلم بعبور البحر إلى "طنجة". لي أصدقاء هناك تركوا الحرب وعادوا، ينامون تحت ظل شجرة، يحرثون الأرض ويدسون في رحمها بذور الحب فتلد لهم طعاماً من فرح.

- سنترافق حتى طنجة إذن فأنا أنوي العودة إلى سقف العالم عن طريق البحر حتى الهند فلم يعد باستطاعتي الذهاب براً والشتاء في الطريق.

- ما رأيك أن نستعد للذهاب في الغد مادامت فوضى الطاعون لم تنته بعد فلن يعترضنا أحد، أخاف إن تريثنا أكثر أن يعودوا يبحثون عن العبيد الهاربين ولن أنجوا هذه المرّة.

وهو كذلك، دعنا نستعد هذا المساء وفي الغد باكراً نرحل.

يأتي الغد من بين أصابع العبد العشرة وهو يصهرها بكف فقيرٍ لا يملك غير تلك الكف، يمدّها إلى الله يتوسل منه

العطاء، لقد مضى زمنٌ طويلٌ على آخر صلاة صلاها،
عندما وقف إلى الصلاة كان يعتقد أنه قد نسي الصلاة عندما
نسيه الله، لكنه أكتشف أن الله لا ينسى وكان هو من نسي الله
وعندما تذكره تذكر الصلاة. لقد كانت الليلة الماضية من
أجمل الليالي التي عاشها، سافر مع صديقه الراهب إلى كل
مدينةٍ عبرها وكل قريةٍ رآها. الراهب بارعٌ جداً في وصف
الأشياء حتى تشعر كأنك تلمس ما يقول وتشم رائحة كل
شيء يأتي على ذكره، أكثر تلك البلدان التي عشقها هي
سقف العالم في شمال الهند ونيبال، الهيمالايا العظيمة،
موطن الراهب، حيث تتمازج السحب بالتراب والسماء
تحتضن الأرض، وعندما تشتاق إلى الملائكة فإنك تصعد
على ذلك الجبل العملاق الذي ما إن تبلغ قمته حتى تسمع
أصوات الملائكة وأغاني الشياطين ويكون الغروب هناك
سرمدياً، راح يغرق في الحلم عندما أخبره الراهب إن هذا
الجبل كان يوماً ما في قعر المحيط ولا أحد يعلم سرَّ وصوله
إلى السماء.

وقفا مذهولين بعدما خرجا من البيت ووصلا قريباً من البحيرة حينما شاهدا "لبوة" عظيمة يتصاغر أمام عينيها الغرور الإنساني، لحظة مربكة تلك التي يقف فيها الإنسان مصاباً بالشلل التام، تهرب منه الشجاعة ويغادره العقل ويتركه مع جسدٍ مرتعش لا يقوى حتى على الوقوف، كانت اللبوة تمر بتلك اللحظة أيضاً وهي ترى صغيرها عالقاً بين جذور شجرة كبيرة داخل البحيرة، لا تدري ما تصنع هي الأخرى فراحت تلتفت تارة للراهبين وتارة إلى صغيرها الذي يستغيث وفي كل مرة تخفت استغاثته عن التي قبلها بعدما دخل الماء إلى رثتيه، تقدم العبد بلا وعي وعيناه جامدتان على اللبوة ويداه ترتعشان بالرغم عنه، تقدم نحو البحيرة بعدما سمع صراخ الصغير المتشبث بالحياة وألقى بنفسه في الماء وتقدم نحو تلك العينين الصغيرتين اللتين تمطران براءة وتخفي غريزة الافتراس الحيوانية، أمسكه بحذر وأخرجه من بين الجذور وليس بعيداً جداً عن أمه القلقة تركه يمشي باتجاه عطر حنانها، تعثر مرتين حتى وصل إلى رأسها الذي كان باستقباله والذي رفعتة ونظرت للعبد المبلل

نظرة لا يفهمها سواها وأخذت صغيرها واختفت خلف البيت
في الغابة الواسعة.

- يبدو أنها ملّت مذاق لحم البشر لكثرة الجثث،

قال الراهب بعدما أخذ نفساً عميقاً وراح يضحك
طويلاً.

- يبدو ذلك يا صديقي

وضحك العبد هو الآخر وبصوتٍ عالي أخرج
الخوف المتخثر داخل عروقه.

مرّاً بالسوق، لا أحد يعبأ بهما وكأنهما يسيران في
سوقٍ بوذية اعتادت رؤية الرهبان، كان المارة قليلين، لم يبق
شيء له قيمة يباع أو يشتري، ألبسة كاسدة، خبزٌ غير جيد،
خناجر وسيوف ورمحٌ كبيرٌ معلقٌ على متجر الحداد الذي
كان يسعل بقوة داخل متجره المظلم، لا يرى منه غير رذاذ
سعاله المتطاير في النور، الحانات أصبحت أقل ضجيجاً
بعدما أصاب الطاعون بغاياها بالخرس، لكنه لم يوقفهن عن

العمل فواحدتهن ماتت قبل الطاعون، الطاعون أمات
ضحكاته، آخر شيء حيّ فيهن.

أمام إحدى الحانات وقفت عربية فاخرة تجرها أربعة
خيول، فتاة تصرخ، يدٌ خشنة تجرها بعنف، ويدٌ تلوح لها
بالسوط وتدفعها على الصعود إلى العربية والفتاة تصرخ بأنه
مصابٌ بالطاعون، وهناك يدٌ أخرى تمسك بالعبد وتطلب منه
التريث أو ترك الأمر، يفلت ذراعه بصعوبة من يد الراهب
ويهجم على الشخصين ويوقعهما أرضاً ويجر الفتاة داخل
زقاق ضيق بعد عدة بنايات من الحانة يتبعهما الراهب
متمللاً.

- كنتُ أعلم أنك ستأتي يوماً ما، البارحة بالذات رأيتك

في منامي، لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

أبعدت ظهرها عن الحائط وراحت تضربُ بيديها على

صدره ثم احتضنته وبكت بصوتٍ عالٍ.

- كنتُ عبداً والعبيد لا يأتون ولا يحلمون.

- دعونا نعود إلى بيت البحيرة الآن ونرى ما الذي يمكن أن نفعله للخلاص من هذه الكارثة.

وراح الراهب يتقدمهما ويتلفت يمينا ويسارا والقلق بادٍ على كل حركة من حركاته. دخلوا الغابة المؤدية إلى البحيرة وتحاشوا الطريق الرئيسي بعدما شاهدوا من بعيد تجمع مجموعة من الناس أمام مدخل الحانة.

أمسك الراهب بيد صديقه بعدما دخلت الفتاة إلى البيت وأختلى به عند البحيرة وقال له بألم وخوفٍ وشفقة:

- ما لنا وللنساء يا صديقي، أليس تريد طنجة؟ لم لا تذهب إليها بهدوء؟ لم تعاود نفس الحماقة التي فعلتها منذ ثلاث سنين عندما كنتَ ذاهباً إلى قرطبة؟
- الأمر ليس معقداً كما تتصور يا صاحبي، ببساطة هناك شيئاً لا أعرفه يمنعني من عدم الاكتراث إلى أمرها.

- كان لبوذا صديق وكان لديه هذا الشعور الذي لديك نحو النساء ولم يستطع بذلك الوصول إلى النيرفانا

والخلو الكامل من المعاناة والانطفاء التام عن العالم.
كان اسمه أناندا وبعد عجزه عن الوصول سأل
المبجل بوذا:

- كيف ينبغي لنا أن نتصرف حيال النساء؟

- لا تنظر إليهن، أجب بوذا.

- ولكن ماذا نفعل إذا كان لا بد من رؤيتهن؟

- لا تتحدث إليهن.

- افترض أنهن تحدثن إلينا، ماذا نفعل عندئذ؟

فقال بوذا محذراً :

- حذاريك منهن يا أناندا.

وأنا أحذرك من هذه المرأة التي لن تستطيع الفكك
منها، ما لا تعلمه يا صديقي أنني رأيتهما في تلك الليلة
التي ألقوك فيها لتواجه الموت مع قطع العبيد
المصاب بالطاعون، رأيتهما تبعد عنك الذئاب
وتحوطك بكلها وكأنها تملكك. امرأة بهذه القوة

سنقطع عليك كل طريق تسلكه نحو الحرية ونحو
الخلاص من دوامة الحيوانات المتعددة في العوالم
التي لا تنتهي، وستبقى تتكرر بألف صورة
وصورة، وفي كل صورة ستكون لها وستقطع
الفيافي والديار في كل حياة كي تصل إليها، كل من
تعرفهم سيصلون نحو كعبة مصدر هذا الوجود
وستبقى أنت في كل عالم تحج إلى كعبة هذه المرأة.

- أليست هي السعادة والكمال سرُّ سير الإنسان في
هذا الوجود الكبير، ما إن ينبت لقدميه ريشٌ حتى
يترك أمه وأباه ومدينته وذكرياته ويهاجر بحثاً
عنهما، ألا يمكن أن تكون المرأة هي السعادة
والكمال لكل الباحثين؟

ألا يعقل أن يتيه الأنبياء ويخطئ الفلاسفة وينخدع
المصلحون ويبحثون عن السعادة والكمال خارج
بيوتهم وهم لا يعرفون عن ماذا يبحثون؟

سعادة وكمال الإنسان بوجود نصفه الآخر الذي
يضع رأسه على نفس الوسادة.

أنت السعادة يا صديقي والمرأة هي الكمال وباللقاء
يتحقق الهدف والغاية من خلق الإنسان.

- أنا لا أفهم هذه الفلسفة الغريبة ولا أظن أنني أتيت كل
هذا الطريق من سقف العالم حتى هذا الوادي
السحيق كي أجد أن ما أبحث عنه تركته خلفي منذ
عشر سنين، لكنني أود أن أخبرك شيئاً هو خلاصة
ما تعلمته في هذه الحياة. الطبيعة يا صديقي تذلل
الإنسان رغم أنفه، لأن جسمه المادي خاضع
لقوانينها. كاذبٌ من يدعي أنه حرٌّ في هذا العالم
وساذج ذلك الذي يصدقه. أنت بلا شك ترغب أن
تكون مثل ذلك النسر الذي يعبر الآن من فوق
رأسك، يعبر هذا الوادي وسيصل إلى قمة ذلك
الجبل - وأشار بإصبع سبابته اليمنى نحو الجبل -
بعد لحظات، ها هو قد وصل الآن وأختفى عن

الأنظار. أنت تتمنى لو أنك تنتقل إلى ذلك الجبل
برمشة عين كما فعل شريكك في الوجود، ذلك
النسر، بغرور، بحركة جناح، لكنك مجبرٌ على أن
تصعد مشياً إلى ذلك الجبل وتسير على ظهره وربما
يتوجب عليك الالتفاف حوله والنزول بعض الأحيان
ثم الصعود مجدداً حتى تصل إلى قمته. تقليد النسر
لا يجدي ولو حاولت فإنك سوف تتسبب بكارثة.

- عليك أن تدرك بأن جسمك المادي هذا هو القيد الذي
تسعى للخلاص منه، هو السجان الذي يخنقك، لكنك
غافل، تطعم قيدك كل يوم أكثر من حاجته وتجعله
أقوى وأكبر كي يخنقك أكثر.

تريد أن تتحرر منه؟

عليك أن تغذي روحك، اجعلها السيد وهي بدورها
ستجعل جسدك المادي يحلق، يطير، يمشي على
الماء، يسابق الضوء، ويتكاثر حتى يصبح ألف ألف

جسد في ألف ألف مكان، تحت قيادة روح واحدة.

هذا فراقٌ بيننا أيها الصديق الطيب الهالك لا محالة.

- يحزنني أن نفترق هكذا يا صاحبي لكني أتمنى أن

تصل إلى وطنك سالماً وأن تجد السعادة والكمال

اللتين تبحث عنهما، ولي طلب أخير؟

- يسعدني أن أحققه لك.

- أريد أن أعانقك.

أدار الراهب ظهره نحو البيت وابتعد بعدما عانق

صديقه لآخر مرة، أحس بشعور غريب دفعه بسرعة عن

خاطره حتى لا يبقى يطالب عقله المتعب من كل هذه الفلسفة

بأجوبة على هذا الخاطر العابر، أحس وهو يعانق العبد أنه

يعانق كل الكون بكل وجوده. أخذ الطريق المعاكس الذي

يؤدي إلى المدينة، كان غارقاً حتى أنه لم ير اللبوة التي

كانت مستلقية وسط طريقه تداعب صغيرها، كانت قدمه

قريبة جداً عن ذيلها، ولولا أنها رفعتة لداس عليه وربما

كانت اللبوة غارقةً هي الأخرى بنفس الفكرة التي كانت
تُغرق الراهب.

تجمع الناس أمام الحانة بعدما صرخ مالك الحانة
وزبونه الثري واستعانا بعبيدهما وأتباعهما، وكثر الكلام
والتحليلات عمن يكونا هذين الغريبيين وعن سبب فعلتهما،
وكلٌ أبدى برأيه في هذا المضمار، وكان القس الذي أوصل
الراهبين إلى بيت البحيرة ماراً بالصدفة وسمع الصراخ
فسأل عن السبب، فأخبروه أنهم رأوا راهبين بوذيين يخطفان
الفتاة بعدما اعتديا على هذين الرجلين المحترمين فقال القس:
- أنا أعلم أين تجدوهما.

جلست تحديق بعينه وترى تلك السماء التي صلت لها
كثيراً، وجلس يمتص عطرها بذرات روحه المشتاقة إلى
عطر الخلود

- كان يريدني أن أعاشر ذلك الرجل الثري، كان
يسعل بقوة، كان مصاباً بالطاعون...

- أسسس .. لا أريد أن أسمع أكثر، دعك من كل ما قد فات ولتحلمي بما سيأتي، ما رأيك أن تأتي معي إلى طنجة، سنبنى لنا بيتاً صغيراً من طين تحت شجرة كبيرة ونعلق بها أرجوحة صغيرة نهزها كل يوم حتى ينجب لنا الحب طفلة جميلة تطير ضفائرها مع الريح جيئةً وذهاباً كلما هزنا الأرجوحة.

- لا أريد أن أحلم، لقد تعبْتُ من اجترار الأحلام، أريد أن أعيش هذه اللحظة، أتعلم؟ لقد تذكرتُ كلماتٍ لأمي كنتُ قد نسيتها، لقد كانت تقول بأن الحياة لا تقاس بعدد السنين التي تمرُّ على الجسد بل بعدد اللحظات السعيدة التي تمرُّ على القلوب، وأن حياة أية وردة على قُصرها هي أطول من عُمرِ جبلٍ أجردٍ باردٍ رغم خلوده.

يكتفي بالصمت وهو يراها ترتعش كورقة خريف مازالت تقاوم الريح، تدير ظهرها وتضحك بصوتٍ عالٍ، تضع يديها الاثنتين على فمها ثم تلتفت نحوه، تنظر إلى

صدره ثم تطرقُ برأسها الذي بدا مصاباً بالدوار وتتمتم
بصوتٍ يكاد لا يُسمع:

- إنه لأمرٌ غريب! قلبي الذي تعلم كيف يحتمل الألم
لا يعرف كيف يحتمل الفرح، أكاد أختنق. لم يستقبل
قلبي كل هذا الفرح، دفعةً واحدة، من قبل.

يقترّب منها ويضمها إلى صدره كمن يفتح لها شرفةً
جديدة لاستقبال أمواج الفرح الطائرة كحلقة إعصارٍ نحو
قلبها الصغير.

في هذه الأثناء يسمعون همهمة ضعيفة، صوت أقدام،
تعلو الأصوات، تقترب، يدك الباب دكاً قوياً، يصرخون:

- نعلم بأنكما هنا.
- أخرجوا أيها اللصوص.
- أعيّدوا لي عبادتي.
- لن ينفعكما الاختباء.
- أخرجوا قبل أن نكسر الباب.

تلتصق بالجدار الخلفي بعدما تراجعت خمس خطوات
للخلف بعدما تركها وراح نحو النافذة يسير على أطراف
أصابعه مستتراً بالجدار كي يرى ما الخبر.

تجمع هناك قرابة ثلاثين رجلاً، لقد عرف القسيس من
بينهم، كان القسيس صامتاً يحدق بالمنزل ويحرك عينيه حول
الجمع، وكأنما يستقري الموقف، وكأنه يفكر بشيء ويردد
بصره نحو المنزل ونحو صاحب الحانة الذي بدا غاضباً
والزبد يتطاير من فمه وهو يردد.

يصرخ أحد الطارقين صرخة موجعة كانت تبدو
وكانها صرخة طلب المساعدة، لكنه يسكت بعدها ويصيبه
الخرس، الجمع يتراجع للخلف والبعض يهرب بسرعة، ما
الذي يحدث؟ زاوية الرؤية لديه رديئة لا يستطيع أن يرى
الرجلين الذين كانا يطرقان الباب، ها هو أحد الرجلين على
الأرض ويبدو أنه تعرض إلى صدمة، يلتفت بسرعة إلى
الباب ويبيكي ويريد أن يقف لكن قدميه قد تركتاه وهربتا على
ما يبدو. يصرخ بذلك الصوت العاجز الذي يصرخ به

الإنسان عندما يشعر بالعجز التام، يصرخ كصراخ يسوع وهو على الصليب: أبتاه لم تركتني؟! يصرخ وهو يستسلم لفكّ اللبوة الغاضبة التي أطبقت على حنجرته وأخرسته إلى الأبد.

راحت اللبوة تجر فريستها وتدخلها داخل الزريبة الملاصقة للكوخ وتسحبها من هناك إلى الغابة القريبة حيث ينتظر صغيرها، تاركة الجسد الآخر ملقى على الأرض بلا حراك ينتظر رجوعها لوجبة إطعامٍ أخرى، بينما كان الناس في حالة هياج وهلوسة، وراحوا يهتمهمون كجنودٍ جرحى يائسين حتى صرخ أحدهم بلا وعي:

- لقد رأيتُ الراهب وقد تحول إلى هذا الوحش. إنه بلا شك ساحر.

- نعم وأنا رأيت ذلك أيضاً.

- هل رأيت عينيهِ؟ هي نفس عيني الراهب.

صاح أحد الرجال الذين حملوا العبد ووضعوه في عربة القسيس وجاءوا به إلى منزل البحيرة هذا.

حينها صرخ القسيس بكل قوته كي يسكت الناس
ويحوز على أسماعهم:

- إنهم بلا شك سحرة، لقد شككت بهم من بادئ الأمر،

لكني لم أعطِ شكوكي حقها والآن أنتم تعلمون ما
يجب علينا فعله.

- علينا أن نحرقهم.

- ولكن كيف يمكننا أن نمسك بهما وهما يتحولان إلى
حيوانات مفترسة؟

- سنحرق عليهما المنزل وبذلك نكون قد أنزلنا
بالساحرين ما يستحقان،

قال القسيس وهو يمسح العرق عن وجهه كمن قد وجد
حلاً لسؤال سرمدي بلا إجابة.

كان العبد يحتضن فتاته وقد توقفت عن الارتجاف
وراحت تراقب معه تكاثر الناس وهم يحملون النيران وقد
أحاطوا بالمنزل من جميع الجهات وراحوا يصرخون:

- أخرجها أيها الساحران وسلمونا الفتاة وإلا أحرقنا عليكما المنزل.

لم يهملهما الناس لحظة تفكير فقد كانوا على ما يبدو أخذوا القرار بحرق المنزل في كل الحالات، ويريدون أن ينتهوا من هذا الأمر بسرعة قبل أن يصحى ضميرهم، فبدؤوا بإلقاء النيران على المنزل من كل مكان كالمطر. التصقت به أكثر وسألته:

- ما العمل الآن؟

- تعالي نجلس في زاوية الكوخ تلك.

ألصق ظهره على الجدار وجلس على الأرض وأجلسها في حضنه وأسند ظهرها إلى صدره وراح يسرح شعرها بيده اليسرى واضعاً يده اليمنى على قلبها.

- هل تذكرين حديثنا عن المطر عندما كنّا في الكهف؟

- نعم.

- أريدك الآن أن تفكري بالسحابة التي تحمله، ربما جاءت هنا وأبطلت صنعة هؤلاء البشر. هل تعلمين بأن جدنا إبراهيم قد تعرض للحرق؟
- لا، لم تذكر التوراة ذلك.
- هل تودين أن أحكي لك القصة؟
- نعم.
- أغمضي عينيك.. لقد كرهوا ما جاء به إبراهيم من التغيير وفي الحقيقة لم يكن لديهم مشكلة مع إبراهيم حتى يحرقوه، كان يكفيهم أن يقتلوه، لكنهم أرادوا إحراق الله، كل المملكة جاءت لتحرق الله ومحاولته لجعلهم أحراراً وتنتصر لعبوديتها للنمرود، جاؤوا من كل مكان وهم يحملون ما يستطيعون من الحطب حتى صارت جبالاً وودياناً وأنهاراً، كانوا يمزجون الحطب بالزيت ويدفنون ضمائرهم تحته ويأخذون لهم مكاناً بين الجموع كي يراقبوا حفلة الشواء العظيمة، وبعد أن أكملوا تجهيز مراسم الثأر لتقاليد

آبائهم، جاء رجلٌ لا يذكر التاريخ اسمه وأشعل النار
فراحت تهدر كأمواج البحر وتسرع بين الوديان
وتتخرج كالأفعى وتتسلق الجبال.

توحدت نار إبراهيم مع نار بيت البحيرة الذي لم
تصدق أخشابه العتيقة برغبة النار فيه حتى أعطاهما كل ذراته
ولم يبخل عليها بالوصال وتحول البيت إلى شبح وجه نبي
يحترق وهو يصرخ ألماً من خيبته في إقناع الناس بالحب
وقبيل رحيل الجموع التي تأرت لله من هذا الساحر الشرير،
سمعوا من داخل النيران صوتاً واثقاً يصرخ:

- إني أشعر ببرد المطر يا حبيبي، إني أشعر بالمطر.
أمطرت السماء كما لم تمطر من قبل، حتى غلب
المطر قدرة العين على الرؤية.

الفصل الثالث

سومر

أمطرت كما لم تمطر من قبل، هذا الحدث الجديد الذي لم يسبق للإنسان صاحب العمر القصير أن رآه هو معجزة الحياة ومعجزة الموت أيضاً. إذ لولا الموت لكانت الأحداث تتكرر بشكل دوري يفقد الحياة متعتها ويفقدها عنصر المفاجأة الشيق. في التجدد إثارة وعدم معرفة ما سيحدث يجعل الإنسان في حالة ترقب لما هو آت، ويولّد لديه أحاسيس مختلفة من الأمل بالأفضل، الرجاء، الحلم، العمل على تغيير الأحداث بما يناسب طموحه وفهمه لهذه الحياة. ذلك الموت الغامض الحزين هو ما يعطي للحياة قيمتها وبريقها. إنها معجزة التجدد التي تجعل من الخلود شيئاً تعيشاً.

أمطرت السماء كما لم تمطر من قبل في حياة هذا الشاب السومري الأسمر العاشق الذي خرج يعاتب عبيد أبيه على توقفهم عن التجديف واحتمائهم بالمظلة القصبية للقارب التجاري الذي يسافر عليه مع والده الذي أخذ بتعليمه التجارة

مع المدن السومرية التي تصطف كخرز المسبحة على طول نهري دجلة والفرات ويتبادلون البضائع مع المدن الأخرى على ساحل البحر الكبير. خرج ضجراً من توقف العبيد عن التجديف وهو المشتاق إلى حبيبته "دلمون" التي لم يرها منذ أربعة أشهر وكان يتوقع رؤيتها هذا المساء لولا هذا المطر المستمر منذ ثلاثة أيام، هذا المطر الذي لم يره من قبل، وها هو يتكاثر كالضباب ويحجب عنهم الرؤية ويُفقد العبيد القدرة على مواصلة التجديف.

- تعال يا "سومر" ودع العبيد يتمتعون بقسطٍ من الراحة فليس بمقدورهم عمل أي شيء أمام رغبة الإله "أشكور" الذي يبدو عليه الحزن والغضب، فكمية هذه الأمطار لا تدل على مزاج معتدل.

- لكننا سنتأخر في الوصول إلى البيت ولن ننعيم برؤية جمال أُمي هذا المساء.

- تعال أيها المحتال الصغير، تعال لأرى عينيك الوسيمتين وهما تكذبان، فما كل هذا الشوق إلا

لحبيبة قلبك دلمون أما أمك المسكينة فيكفيها عاشق
واحد .

يدخل سومر داخل السقيفة القصبية حيث يتمدد والده
وهو مبتسم واضعاً يديه خلف رأسه وقدمه اليسرى فوق قدمه
اليمنى متكئاً على وسادة من قش مغطاة بنسيج صوفي
منقوش عليه صورة لإلهة الحب إنانا، يجلس سومر بالقرب
منه في الجهة اليمنى لحائط السقيفة وهو مضطرب غاضب،
لكنه مطرق برأسه يتجنب النظر في عيني والده العجوز
الذي يعرف كيف يتعامل مع نزوات ابنه العاشق بصبر
وحكمة وابتسامة.

- إن لم نصل اليوم سنصل غداً يا بني، فلقد صبرت
كل هذه الأيام والصبر ليوم آخر لن يكون بهذا
السوء الذي تشعر به، بل يزيد من شوقها وحنينها
إليك.

- لكن يا أبي..

- دعك من لكن وأخبرني عن هذه القطّة المسكينة التي
جلبتها من لكش؟

- أخبرتك من قبل أنها هدية إلى دلمون.

- نعم أخبرتني ولكن ألا توجد قطط بأور حتى تجلب
هذه المسكينة كل هذه المسافة؟

- لم أر قطّة بجمالها في أور، ألا ترى يا أبي إنها تشبه
أسداً صغيراً بذلك الكبرياء وذلك الشعر الكثيف
الذي يحيط برأسها، إضافة إلى أنها تمتلك عيني
إنانا الجميلة، فلا أعتقد أن الآلهة نانار ونينجال قد
خلقا عينيّن أجمل من عينيّن ابنتهما إنانا أبداً.

- هل تعلم بأن القطّة هي سبب وجودك في الحياة؟

- بل هو صوت إله المطر إشكار.

- بل هو صوت القطّة من أيقظ أمك في تلك الليلة،
لكنها تحاول أن تجعل من خوفها من صوت القطّة
نداءً مقدساً من إله المطر كي تحتفظ بغرورها.

وراح بلا توقف يحاول سرد القصة:

- في تلك الليلة....

- أوه ليس مجدداً يا أبي فقد مللت سماع هذه القصة.

- إنها قصة جميلة وأنا لا أريد أن أقصها عليك بل

على عبيدي المساكين الذين أتعبتهم سياط إشكار،

ثم رفع صوته ونادي على عبيده:

- هل سمعتم من قبل قصة ولادة سومر؟

فأجاب بعض العبيد بالنفي، بينما سكت الآخرون،

لكثرة ما سمعوا هذه القصة من سيدهم "للا" وسيدتهم "تار"

- في ليلةٍ ماطرة، تكاد تكون هذه الليلة، فزت تار

مرعوبة من صوت القطة التي.....

- من صوت إشكار إله المطر.

قاطع سومر استرسال أبيه وهو يحك شعر رأسه

ويتأفف ثم راح يعبث بوجه القطة بأصبع يده اليمنى السبابة.

- فزّت تار مرعوبة من صوت إشكار - للا مبتسماً -

وهو يزمجر بالويل بعدما أسكرته قوته وهو يهزم

البيوت الطينية ويطارد قصب الأكواخ على سطح
الهور، وراح ينادي على إله الحرب ننورتا
ويستدرجه إلى العراق، بينما كان الأخير مشغولاً
بنصر مليكنا "أورنمو" ومرافقته حتى عودته ظافراً
إلى أور. تخرج تار بحثاً عن صوت إشكار، فيقودها
إلى داخل بيت المؤن والنبيل الصغير، فتسمع صوت
جارنا الكاهن الأعظم الـ "سانكا" أوتونابشتم وهو
يتوسل زوجته "شارا" أن تصحو وتستجيب لرغبته
في زراعة بذرته في باطن أرض رحمها، فهذه هي
الليلة الموعودة التي كان ينتظرها من سنين. من
الكوة المطلّة على بيت أوتونابشتم تشاهد تار السانكا
وهو لا يقر له قرار يخرج بين لحظةٍ ولحظةٍ
ويراقب السماء، بينما بدت شارا من خلال نافذة
غرفة نومها التي فتحها أوتونابشتم في هذه اللحظة
تغط في نوم عميق كأفكار إله الحكمة العظيم
"أنكي". جلس أوتونابشتم عند قدمي شارا وراح
يناغيها بكلام ناعم كفرو قطط أوروك ويقبل قدميها

كي تستفيق ويعاود الخروج إلى "حوش" داره ويرمق السماء. لاحظت تار ابتسامة أوتونابشتم الخفيفة المترقبة كلما لمع البرق في السماء وأضاءت وجهه ثم بدأ البرق يعكس وجهاً آخر لأوتونابشتم، الوجه الذي بدأت ملامحه تمتلئ بالارتياح والانزعاج من إصرار شارا على تجاهله فعاد يكلمها بصوت أعلى من قبل:

— شارا يا أجمل الجميلات في أور، يا من تغار منك إنانا، كيف لا تغار إنانا؟ وهل في الكون الممتد من الأرض حتى نيبيرو عيان أجمل من عيني شارا؟ وضاف أطول من ضفائرها؟ وخصر أطوع من خصرها للريح؟ هل يعقل أن توجد شفتان كضفتي قيثارة سومرية مطرزة بالورود إلا عند شارا؟ وهل خلقت "نماخ" أجمل من شارا؟

فتحت شارا عينيها وقد رقت لحال أوتونابشتم ومدت يديها وطوقت بها رقبتة وقالت له بغنج:

- ولم لم تخبرني برغبتك الملحة بمضاجعتي أول المساء وقبل أن نغوص في بحر النوم، قبل أن يحملنا الإله أوتو في قاربه ويعبر بنا عالم الأحلام الساحر؟

- افهميني يا شارا، في هذه الليلة، هذه الليلة فقط، التي حددها الإله الذي جاء من السماء إلهوهم: الولد الذي يولد في رحم أمه على أرض أور في هذه الليلة سيكون إله سومر إلى الأبد، سيمنحه الأب الساكن في نيبورو كل قدراته وسيعلم أبناء سومر الصعود إلى السماء والذهاب إلى نيبورو متى شأؤوا، سينعم بالخلود الأبدى ويكون راعي سومر الذي لا يقهر وستركع كل الآلهة تحت قدميه وسيتوج أور سيدة مطاعة على كل أرض سومر وستكون دلمون العالم.

جاءت تار تركض مسرعة وألقت بجسدها النحيف كخيزرانة على ظهري، فانقلبت على بطني، لكنى

لم أستطع أن أقاوم حماسها وراحت تمزق ثيابي وأنا
غير مدركٍ لما تصنع غير أنني استسلمت لها تماماً،
وهل يستطيع الرجل أن يقول لا لأنثى مجنونة؟

بعد تسعة أشهر وفي ليلةٍ واحدة ولد في بيتنا سومر
وولدت دلمون في بيت جارنا السانكا الأعظم لمعبد
آن، وما إن علم السانكا أوتونابشتم بولادة سومر
حتى أتى مسرعاً وطلب أن يراه، وكان الوقت فجراً
قبيل شروق الشمس فرحت أحمله إليه والشمس
ابتدأت ترسل أشعتها لتقبيل سومر، وقبل أن أصل
إلى أوتونابشتم راح يركع وما إن وضعت بين يديه
حتى سجد وقبل قدميه وقال لي :

- إنه هو الموعود، إنه هو بلا شك، عيناه اللتان
تشبهان ديموزي الراعي، الثور الوحشي، الخصب
في عناقيد البلح، محرك الأجنة في الأرحام ومنتج
الحليب في الأثداء، انظر إلى يديه اللتين كأنهما نهرا
سومر أدجلات وبوراتوم، طفلك هذا هو الذي بشر

به الإله إلهوهم عندما جاء من نيبورو ليُعَلِّم
السومريين كيف يصبحوا آلهة. اسمع وافهم يا للاً،
كان من المفروض أن يكون ابنك هذا ابناً لي ولكن
الآلهة لحكمةً ما، أجهلها، وشوشت لكما أن تزرعانه
في تلك الليلة التي انتظرتها سنين طوال، كما
وشوشت من قبل للحكيم أوتونابشتم وأخبرته
بالطوفان كي لا تنتهي سلالة السومريين المقدر لها
أن تكون آلهة بعدما اتفق مجمع الآلهة على إغراق
الأرض لأن أصوات البشر أصبحت مزعجة بعد أن
تكاثروا وقضّوا مضجع الآلهة، لكن إله الحكمة أنكي
سرب هذا القرار للحكيم أوتونابشتم وعلمه طريقة
صناعة مركب ينجيه وينجي المختارين معه. أنا
سعيد بولادة دلمون ابنتي، فمن يولد يوم ولادة الإله
فحتماً سيكون له نصيبٌ في الألوهية.

لم يلحظ للاً بأن عبيده قد ناموا خارجاً على ظهر
المركب متدثرين ببعضهم وبالرقّ اللعين المقدر عليهم من

تلك الآلهة التي يتكلم عنها سيدهم للا بإعجاب، فما الذي سيشكل فارقاً بحياتهم لو أن الآلهة زادت إلهاً آخر .

كان للا يشعر بالفخر كلما قص هذه القصة على أحد، هو لم يترك أحداً قابله وسمح له الوقت بأن يقص هذه القصة إلا وقصّها، في رحلته هذه الأخيرة إلى مجان قصّها مرتين، مرة عند تاجر لؤلؤ مجاني ومرة أخرى في الحانة بعد أن سكر وانتشى بمضاجعة صاحبة الحانة التي أراد لها أن تعرف أيّ رجلٍ عظيم شاركته اللذة.

لم يبق في هذا الليل العاصف ساهراً غيره وغير سومر وقطة دلمون التي تتمطى من لذة الدفء الذي أحاطها به سومر.

رفع سومر رأسه وسأل أباه:

- هل تعتقد حقاً بكلام السانكا أوتونابشتم؟

- نعم، بكل تأكيد.

- لكني رجلٌ عاديّ، لا أملك أياً من مقومات الآلهة،

ليس لي قوى خارقة، ولا أقدر على تغيير القدر ولا

أتمكن من اللعب بالكواكب وقطرات المياه، ولا
يمكنني أن أجعل هذا المركب يُسرّع أكثر من قدرته
ويصل بي إلى دلمون؟

- أنت تملك قلب إله، وهل الإله إلا قلب طفل لا يعرف
غير الحب؟

- أتعلم يا أبتِ أنني مازلت لا أرى وجهي الكبير في
أحلامي، دائماً أراني طفلاً لا يريد أن يكبر، كبرتُ
ولم يكبر ذلك الطفل الذي ارتعشت كل شعرة فيه
خوفاً بعدما تاه يوماً بغابة النخل ساعة الغروب،
كلما ظننتُ أنني نسيْتُ، يذكرني ذلك الطفل بطريقة
ما. أكثر المرات يدخل حلمي دون أن يطرق الباب
ويفتح النافذة ويقفز، أتبعه نحو النافذة، أراه واقفاً
تحت شجرة السدر مرعوباً ينصتُ لكلام الإله أن
الذي كان يرتدي جسد ابن آوى الذهبي اللون ويملي
عليه من فوق شجرة السدر كلماته المقدسة التي لا
يستطيع الدهر أن يمسخها أو أن يحول دون تحققها،

حينها كنتُ مجبراً على الوقوف والسماع بعدما
أصاب الخدر قدميّ فنسيت أن عليهما الركض
سريعاً باتجاه النور القادم من بيت دلمون، كنت
أصرخ بلا صوت: دلمون تعالي أنقذيني، دلمون
إني خائفٌ جداً، دلمون لا تتركيني، لكن أن يمد
عينيه ويمسك بقلبي ويخبرني بأنني سوف أكون
كالفضة المذابة أدخل من تحت أبواب القدر في
قلوب الناس وأختلط مع مياه نهر دمائهم حتى أصل
إلى قلوبهم وأزيل عنها أمراضها وأحاصر أوهامهم
المظلمة وأهديها شمساً صغيرة من شمس الحقيقة
لتنير لهم الدروب وأخرج مع الزفير دون أن يشعر
بي أحد، سَأبقى مُذاباً ما بقيت شعلة الحب متقدة في
داخلي، وحذرنى من ساعات الخفوت الكثيرة التي
ستعرض الإذابة، وبعد أن ظهر بوجه الثور المجنح
وأخرج جناحيه استعداداً للطيران أخبرني أنني
سأتحول إلى مسلة يغطيها الغبار في زقورة

مهجورة لإله ميّت إذا ما انطفأت شعلة الحب التي
تحركني.

- دع الأناكي ينقشون مصيرك على مسلة القدر
وأغمض عينيّك وأحلم بدلمونك التي ستلتقيها غداً
ونم يا بُني الحبيب.

رست مراكب التاجر للا على ساحل ميناء أور، كان
الوقت عصراً، والعصر في أور يشبه الذهب، الشمس ترسل
أشعتها الذهبية الفاترة على بيوت القصب الذهبية القريبة من
المرسى وعلى مياه نهر الفرات المخلوطة بالطمي القادم من
الشمال محولاً لون الماء إلى لون الذهب، كل شيء يشبه
الذهب في هذه المدينة الذهبية حتى الأجساد العارية من
الرأس إلى أسفل البطون الغائرة للسكان والعبيد المنتشرين
على ضفة الميناء الغاص حد التخمة بالمراكب والبضائع
والضجيج والغناء والفرح. بدأ العبيد بتفريغ المراكب من
بضائعها الثمينة، بينما راح يحدق للا بالمركب المجاور
لمركبه، إنه مركب صديقه أشعار القادم من الشمال المحمل

بالأخشاب، راح للا يعانقه ويتحدثان بأمور التجارة كعادتها، بينما كان سومر يتسلل خارجاً من المركب بعدما وضع قطعة دلمون داخل صندوقٍ مزخرفٍ مع باقي الهدايا التي اقتناها لحبيبته. وراح يحمل الصندوق وينطُّ على الضفة ويستقل أول عربة ذاهبة إلى المدينة، ثمَّ وعلى مقربةٍ من البوابة الجنوبية لمدينة أور يترجل من العربة بعدما يطلب من السائق أن يمر على متجر أبيه في الغد ويركض على أطراف أصابع قدميه ويضرب بخبثٍ سائق العربة الأخرى الذي كان غافياً بعدما أتعبه السكر ليفزَّ مذعوراً ثم يصرخ فرحاً ويحتضن صديقه سومر.

العربة التي يعمل عليها أنودال كان لسومر الفضل في شرائها لصديقه بعدما طرده الكهنة من معبد نانا لسكره الدائم وتحرشه بكل كاهنات المعبد ومجونه الدائم، خسر وظيفته الجميلة حيث كان يعمل عازف على قيثارة المعبد، ولم يجد أنودال غير صديق طفولته وزميله في دروس الموسيقى سومر ليساعده في الحصول على عمل، وبعد أن يؤس سومر بإقناع أبيه للا بجلب أنودال للعمل في متجرهم أو تشغيله في

إحدى مراكبهم التجارية، كان للا يخشى على ابنه سومر من غواية أنودال الماجن، راح سومر يطرق قلب أبيه الحنون بمد يد المساعدة لأنودال، وأخيراً وافق الأب على أن يشتري لأنودال عربة تحمل البضائع من وإلى الميناء بشرط أن يحمل بضاعتهم بالمجان متى ما طلب منه للا ذلك.

- هلاً أقنعت أبيك أن يسمح لي بالسفر معك في إحدى رحلاتك يا سومر؟

- لن يقتنع، حاولت معه كثيراً وأنت تعرف السبب.

- كل سكان أور يسكرون ويعبثون.

- ليس كلهم يضاجع كاهنات المعابد.

- لا أستطيع أن أتوب من هذا الأمر لسبب بسيط.

- وما هو هذا السبب البسيط أيها الموسيقي الحالم؟

- أشعر بالقداسة وأنا ألمس جسد محظيات الآلهة وأشعر بالوهيتي.

يضحكان عالياً وهما يعبران بوابة المدينة العظيمة
وسط تجمعٍ كثيفٍ للجنود والحرس والكُهان، يلتفت أنودال
إلى سومر، يهمس بأذنه كمن يريد أن يخبره سرّاً وهو يرمق
الحشد بنظراتٍ تبعث على الحيرة:

- هناك شيءٌ غريب يحدثُ في أور يا سومر، منذ
يومين والجنود ملؤوا الشوارع والأسواق والميناء،
يبدو أن هناك حرباً جديدة، لكن ما لا أفهمه أنه ومنذ
يومين أيضاً أغلقت كل معابد المدينة.

- لذلك فأنت كنتَ مخموراً ونائماً لأن المعابد مغلقة
ولا تستطيع الوصول إلى الكاهنات.

يضحك أنودال ويحاول أن يشق طريقه نحو بيت
سومر من خلال الشارع القريب من السور المحصن الذي
يطوّق أور بكاملها، غير المزدهم في هذا الوقت الذي يكون
فيه السوق في قمة ازدهامه، بينما يقفز سومر ويتمدد على
قفاه ويغمض عينيه على سطح العربة وهو يشتم رائحة الكرم
والنخيل وأوراق السدر التي كلها تذكره برائحة دلمون.

- نحن نذهب إلى بيت دلمون كالعادة يا سومر أم أنك اشتقت إلى أمك أكثر هذه المرة؟
- اشتقت إلى مشاكستك يا صاحبي - يضحك سومر - اذهب إلى دلمون أيها الأجير.
- بكل سرور يا سيدي،
يجيب أنودال ثم يتوقف فجأة.
- يرفع سومر رأسه ويلتفت إلى أنودال وقبل أن يسأله عن سبب توقفه يرى أنه ينظر باتجاه زقورة أور الفخمة التي بدأ بنائها الملك أورنمو وقد وصل بناءها إلى المنتصف.
- لقد توقفوا في الأمس عن البناء، أما اليوم فإن أعداد البنائين قد تضاعف كثيراً،
يتمتع أنودال بصوتٍ ضعيف وهو غارق في البحث عن السبب.
- يضر به سومر على قفاه ويصرخ به:

- ومنذ متى كنت تصحو لتهتم بأمور المدينة يا أنودال، أسرع فلقد تأخرت على دلمون.
- نعم، معك حق، يجب عليّ ألا أصحوا كثيراً، الآن فهمت لم أن أكثر الناس يشعرون بالإحباط.
- ولماذا؟
- لأنهم يصحون أكثر مما يسكرون.
- أسرع بي إلى دلمون يا أنودال فلم أعد أحتمل هذيانك.

يدخل سومر بنصف جسده العلوي العاري ومئزرته الذهبية المزركشة الطويلة حتى قدمية إلى بيته مسرعاً، يشق الطريق من الباب الرئيسي، متجاوزاً فناء البيت الأمامي وهو يتمتم بكلماتٍ مبهمّة لا تبدو سومرية، أشبه ما تكون بأجراس القصب وهي ترتطم ببعضها البعض أو صوت المردي وهو يلامس قاع النهر، يصعد سلالم الدور الثاني سريعاً ويعبر غرفة الضيوف وغرفة الخدم العلوية وغرفته، ويدخل حجرة تار متأففاً، ويضع الصندوق الذي كان يحمله

على صدره على طاولة خشبية هناك بقوة، ويأتي مغتاضاً
يضرب بقدمية الأرض ويعود الصدى إلى رأسه فيرتج من
قوة خطواته، ويرتمي في حزن تار التي تشمه وتقبله وهي
ترمق للا وتحاول كتم ضحكاتها وهي تمسح الشعر عن
جبهته وتحاول دغدغته كي تسمع ضحكته، وقالت له بحب:

- لم يبدو قمري حزيناً؟ ألم تشتاق إلى أمك التي كانت
تعد الأيام كي ترى طولك الجميل وأن تسمع أنفاسك
المقدسة بعد طول الغياب؟

- بالطبع اشفتك، لكن!..

- لكن ..! وتضم شفتيها تحاول تقليد لهجته الطفولية.

- لكن .. لم تكن دلمون في بيتها، أخبرتني شارا بأنها
لم ترجع للبيت منذ عشرة أيام. كنتُ فقط أريد أن
أريها ما الذي أحضرت لها معي وها أنذا أعود
بصندوق هداياها.

- وأين صندوق هداياي؟

- لقد أرسلته مع إيسو، ألم يصل إيسو بعد؟

- تركته مع باقي العبيد يفرغون البضائع وينقلونها إلى المتجر وأتيت مسرعاً إلى حبيبتي تار، فأنا لن يشغلني عن تار أي شيء آخر في الوجود. وراح ينظر للا إلى وجه ابنه سومر الحزين ويضحك في صمت.

- دعك من كلام أبيك يا سومر، إنه يمزح معك لا غير. أنت تعلم بأن أمر دلمون لم يعد بيدها بعدما أصبحت الوصيصة الأولى للملكة مارسا، قمر أور ونجمتها الساحرة، زوجة الملك أورنمو المختار من قبل أنليل لحكم كل بلاد سومر وبسط الرحمة والرخاء على كل شعبها. الملكة مارسا تحب دلمون جداً ولا تستطيع الاستغناء عنها، ربما تأتي دلمون غداً فلا تحزن.

- كم غدا عليّ أن أنتظر كي ألتقي بدلمون؟ الكل يقول غداً، أبي، شارا وأنتِ وهذا الغد يأبى أن يأتي، عندما أرى دلمون سأخبرها بأن عليها أن تخبر

الملكة أنني لا أطيق فراقها، على الملكة أن تبحث
لها عن وصيفةٍ جديدة، فسلمون مليكتي وكل نساء
أور وصيفاتها.

- حتى أنا؟ وقهقهت تار بعد أن أمسكت بيديها خدي
سومر وراحت تقرصه.

- أنتِ تعلمين إنني لم أقصدكِ يا أما (ماما) فأنت ملكة
كل الكون.

- حان وقت ذهابك لرؤية أصدقائك فلدي كلام خاص
مع أمك.

- سأذهب فوراً يا من تنصحنني بالصبر وأنت تفقده
الآن

ونفض مسرعاً وهو يضحك بينما راح أبوه محاولاً
اللاحاق به إلا أنه أفلت بقوة الشباب التي تفور في عروقه
وأغلق الباب خلفه.

أنودال

عند المساء يقطع صوت مواء قطّة ماجنة الطريق
أمام استغراق سومر في التحديق بنجمة بعيدة في آخر العالم
من على سطح دارهم المرتفعة فوق مرتفعات أور. لم تعرف
أور أمجن من أنودال وها هو يصرخ بجوع القطّة إلى اللذة
منادياً صديقه سومر أن حيّ على المجون في علامة قديمة
بينهما، دائماً ما يموء أنودال تحت شرفة سومر إن كان
بحاجة لرؤيته من دون أن يعرف أو يشعر به أحد ودائماً ما
كان سومر يعرف كيف يستدعي صديقه، يعزف الناي
بالقرب من بيت أنودال القصبي خارج أسوار المدينة.

يتسحب سومر مقلداً حركات كاهنة وهي ترقص على
أطراف أصابع قدميها في رقصة الصلاة المقدسة ويعانق
أنودال الذي كان يختبئ خلف شجرة العنب الكثيفة في حديقة
بيت للا، ويجريان نحو زقاق ليس بعيداً نسبياً حيث خبأ
أنودال عربته التي يجرها حصانه سيمار.

- إلى أين تأخذني يا أنودال؟

- إلى دلمون.
- دلمون؟
- ليست دلمونك يا أحرق بل إلى دلمون الآلهة، حيث:
"في دلمون لا ينطق الغراب الأسود
ولا يصيح طير ال "أندو" ولا يصرخ"
وراحا سومر وأنودال يرددان معاً باقي النص المقدس:
"ولا يفترس الأسد "الغزلان"
والذئب لا يفترس الحمل
ولم يعرفوا الكلب المتوحش الذي يفترس الجدي
ولم يعرفوا "الوحش" الذي يفترس الغلة
ولم توجد الأرملة
والحمامة لا تحني رأسها
وما من أرمد يشتكي ويقول عيني مريضة
ولا مصدوع يقول في رأسي مرض الصداع

- وعجوز دلمون لا تقول أنا عجوز
ولا يقول الشيخ أنا شيخ طاعن في السن
والعذراء لا تستحم ولا يصب الماء الرائق في المدينة
ومن عبر "الموت" لا يتفوه ويقول "الحماقات"
والكهنة النائحون لا يحومون حوله
والمنشد لا يعول بالثناء
وفي طرف المدينة لا ينوح ويندب"
- لقد دعنتي إحدى كاهنات المعبد كي أكون عازفها
الخاص وهي ترقص في قصر الأمير "خايا"
المحتفل هذه الليلة، هي لا تعلم سبب الاحتفال لكني
أعلم.
- وما هو السبب يا كاشف أسرار الملوك.
- السبب بسيط جداً يا عزيزي سومر، الأمراء لا
يحتاجون لسبب للاحتفال.
- نعم بهذا أنت صادق.

- عليك أن تعزف معي، فأنا أخبرت الكاهنة بأننا شريكين، وبما أنك ابن تاجر فلن تكون بحاجة لنصيبك من المكافأة، لكنك ستقضي ليلة لن تنساها طويلاً.

- أنا سأعزف على الناي وأنت ستعزف على القيثارة، أنت بارعٌ بالعزف على القيثارة.

- هذا تواضع منك يا صديقي فلا يوجد بأور أبرع منك في العزف على القيثارة إلا دلمون.

- آه.. وأين هي دلمون.

- لا تبتئس، سترأها غداً.

- حتى أنت تقول غداً يا أنودال؟ متى سيأتي ذلك الغد.

كان سومر يعتقد بأن بيتهم أجمل بيتٍ في أور بعد المعبد طبعاً لأنه لم يكن قد دخل داخل القصور الملكية من قبل، كان يراها من الخارج فقط وكانت عادية لا تختلف عن بيتهم كثيراً. بعد أن تجاوزا الحراس ودخلا من الباب الرئيسي الضخم، وراحا يسيران داخل ممر عريض وطويل

تصطف على جانبيه الأعمدة كألواح القصب، وصلا إلى القاعة الرئيسية حيث توقفا هناك عند مدخل القاعة بانتظار الكاهنة كي تدلهما على مكانيهما.

منظر القصر من الداخل كسر غرور سومر، السقف العالي الذي تزينه ثريات الشموع الكبيرة والتماثيل العظيمة الكثيرة للآلهة، هناك آلهة لم يتعرف عليها سومر بعد لأنه لا يحتاجها بعد، لكنه يعرف الإلهة إينانا التي صوّرها فنانون القصر بكل شكل وحركة ووضعية مغرية، كيف لا وهي إلهة الإغراء المقدس والخصب والنماء والعشق والموسيقى وكل قطعة جمالٍ في هذا العالم.

لم يكن هناك كثيرٌ من المدعوين، يبدو أن الحفلة خاصة جداً، جاءت الكاهنة إليهما وأمسكت بيد أنودال كالعارفة بقطع جسمه قطعةً قطعة، هكذا دار في خلد سومر وهو يرى ابتسامة أنودال الصفراء الخبيثة وهو يجدف بنظراته في النهر الممتد بين نهدي الكاهنة البارزين كقبتين ذهبيتين من قباب المعابد، أجلستهما في مكان العازفين عند زاوية مرتفعة

من زوايا القاعة وأمرتهما بالبده. أمسك سومر الناي وزفر
زفرة الطين الحزين فيه، المشتاق إلى روح دلمون كي تحوله
إلى كائن حي، أما أنودال فإنه راح يرقص على أوتار
القيثارة بعبثية الفرحة المطلق، فكان لتزاوج الحزن النقي
بالسعادة البريئة سحرٌ لا يقاوم جعل الأمير خايا يصرخ
صرخة طرب هزت كل الفضاء الساهر تلك الليلة، وأمر بأن
ترفع الأستار من كل مكان في القاعة، حيث جلس الأمير
خايا عارياً في حوض الاستحمام الدائري الذي كان مستتراً
بالحُجب وسط القاعة، كان الحوض مغطى بأوراق الورد،
وفي زواياه الأربعة كانت تماثيل إينانا وهي تحمل سلة
البخور الذي كان يبعث بعطره في الأرجاء وفي أسفل
التماثيل توزعت طاسات القير وصابونا الشحم وزيت
العطور. في الزاوية المقابلة لزاوية العازفين أظهرت
الأستار، بعد اختفائها، كاهنات معبد آن وهن عاريات إلا من
تاج ذهبي مرصع باللازورد وتميمة من أحجار كريمة تلتف
حول العضد الأيسر وسوار خرزي دائري باللونين الأزرق
والأبيض حول الخصر وجِل فضي في القدم اليمنى.

أمر الأمير خايا أن يُسقى العازفان، توقفًا لتناول كأس
الأمير.

- إنا حقاً في دلمون يا أنودال.

- أنت لم ترَ شيئاً بعد.

عزفاً من جديد بعد أن دارت الخمرة برأسيهما دورتها
الأزلية وأسقطت على عينيها ثمار اللذة والاشتهاء، كثمار
النخيل الرطب المتساقط على رأسي عاشقين يختبئان في
غابة النخيل خلف أسوار أوروك في الضفة المقابلة لنهر
الخصب الإلهي المهدى لأرض سومر، لكن هذه المرة أعطى
أنودال القيثارة إلى سومر وراح يضرب على الطبل
المصنوع من جلد الماعز في حالة هياج كثور بري مجنح
يصارع الرغبة في الاقتراب من عشيقة متمنعة، خلطت
جسدها بالعطر ونامت نصف عارية وأوكلت حراستها لنمرٍ
من نمور أندوس. عندما مسك سومر القيثارة وراحت
أصابعه تتلاعب بشرائينها أصبحت القاعة الملكية كلها عبارة
عن قلب تزفر رنثته بالنشوة بين هبوط وصعود كالنبض

تماماً، وعندها هبطت أولان إلهة الموسيقى وارتدت جسد الكاهنة شامات صديقة أونداال العارية وهي تتراقص كفراشةٍ أسكرها الضوء وتدور حول حمّام الأمير خايا الساخن وتقص عليهم قصة سومر:

- في البدء كانت إينانا وحيدة، ليست سوى طينٍ باردٍ كموقدٍ مهجور، كانت تملكُ جسداً لا تدري غير أنه وقود ثورات البراكين، كان يفور في كل عام وينثر العطر على البحار ثم يهدأ فيذوب ويبرد، يموت بارداً ويصبح عاصفةً ثلجية تجتاح العالم، كانت إينانا ليست سوى أرض جرداء تسمى يير.

وكان ديموزي وحيداً، يملك قلباً لا يعرف ما جدواه، يملك محراثاً لا يدري علاه، يملك قمحاً، تمرّاً، تفاحاً وعصافير جائعة ترقد فوق بيوضها لأعوام لدورة فلكية كاملة، لسنين بلا عدد، لا العصافير تنتصب ولا البيوض تهاجر أعشاشها، كان ديموزي ليس سوى حُبٍّ خاوٍ يدعى سيوم.

حتى التقى الراعي ديموزي بإينانا الفاتنة التي
سمعت وصية أمها ومزجت جسدها بأوراق الورد
وصبغت شفثتها بالعنبر الزكي الرائحة ولوّنت
رموشها بالكحل وتعرت لتكشف أرضها لمحراث
ديموزي العطش لحرارة أرض أحلامه ورسم
الخصب على هذا العالم الخام البارد الذي لم يعرف
الدفع ولا صراخ وجع اللذة ولا سرّ كل خلية من
خلايا جسده الصارخ بالسؤال الأبدي عن معنى
الموت والحياة وعن السبيل المجهول نحو شجرة
الخلود التي بدأت تثمر في هذه اللحظة من جسد
إينانا ومن عرّق جبين ديموزي، ومن أرض إينانا
ومن حب ديموزي ولدت "سومر" من سيوم ويير
لتكوّن إلى الأبد "أرض الحب" التي لا تنطفئ ما
بقي أنثى وذكر.

خضع كل الكون إلى إينانا الجميلة واصطفت
الكواكب حول جيدها تزين رقبتها كعقدٍ من خرز
ملون ولم يبق ما يكدر خاطرها غير مملكة إركلا

التي تحكمها عدوتها اللدودة أختها إريشكجال
العاشقة لديموزي الذي رفضها وتزوج من إينانا.

رفض العالم السفلي أن ينقاد إلى إينانا فنزلت تريد
بسط سيطرتها على ذاك العالم لكنها لطبيتها
خُذعت، خدعها نمتار وزير إريشكجال المطيع
وراح بمكرٍ يسلبها قوتها شيئاً فشيئاً عند كل باب من
أبواب الجحيم السبعة.

سلبها الشوجارا، تاجها المرصع بالهيبية والقوة الذي
يمدها بالوهيتها القاهرة للبشر.

سلبها قرطي أذنيها اللازورديين اللذين يساعدانها
على سماع أصوات الكائنات وأنين الموتى وتضرع
الأحياء.

سلبها قلادة جيدها المرصعة بالأحجار الكريمة التي
كانت تحيط بها برقاب الملوك.

سلبها الجواهر التي تزين نهديها التي تمد بها اللبن
المقدس في صدور الأمهات اللاتي يرضعن أبناءها
الضعفاء.

سلبها الحزام الذهبي المرصع بالحلي والأحجار
الذي يطوق خصرها، والذي كانت تفيض منه
المسرات التي تغوي الآلهة قبل البشر.

سلبها حجلي قدميها وأساور يديها وأنساها الرقص
المقدس الذي يتلاعب بالكون منذ الأزل.

وأخيراً سلب منها ثوبها وأدخلها عارية من كل
شارات الخلود الإلهية كفانية عاجزة خطفها الموت
من الحقول ورمأها بين يدي إريشكجال تلعب بها
كالدمية وترميها في غياهب النسيان الأبدية.

صرخت ننشوبر، شقت خادمة إينانا الوفية
ووصيفتها الجميلة أثوابها ولطمت خديها وناحت في
الأعالي على إينانا الجميلة عند مجمع الآلهة
وتضرعت لأن كي يعيد الحياة لمولاتها، لكنه لاذ

بالسكات، كما أدار إنليل ظهره لها فلم يكن أمامها
غير أنكي إله الحكمة والماء، فوقفت على بابه
وناحت:

- يا لهفي على إينانا الحبيبة، الحياة توشك أن
تنتهي، ما جدوى الحياة بغير الحب؟ وكيف يكون
هنالك حب وإلهة الحب ميتة في قصر إريشكجال
في إركلا؟ سومر تموت يا مليكي إنكي، الثور
أصبح مخصياً ويهرب من عيون البقرة، والعصفور
هاجر عشه وسكن مع البومة في خرائب الصحراء،
وابن سومر ينام مغموماً وهو لا يرى حركةً بين
فخذه، وزوجته تحتضن الحائط تبكي رماد نهديتها
الأزرق البارد من هجران الدفء، وشوارع سومر
أصبحت سوداء كنيبة بعدما توقف العشاق عن
إرسال نظرات الحب الملونة والقبلات الخاطفة.

رسم أنكي صورة في خاطره وخلقها في الحال،
خلق شاعرا وأسماء جميل المُحيا وعلمه فنون

الخداع وسرقة القلوب وبعثه إلى العالم السفلي
واستطاع أن يخدع إريشكجال ويسرق منها وعداً
بماء الحياة وأعطاه إلى إينانا فقامت من بين
الأموات وعادت من تراب ذاكرة النسيان البعيدة.

غضبت إريشكجال على جميل المحيا، فأرسلته
هائماً في القفار، وجعلت طعامه ما تبقي عليه القطط
والكلاب السائبة من مزابل المدينة، وشرابه ماء
مجري سومر، ومعبده الحانات الرخيصة،
وصلاته البكاء على رصيف أجساد البغايا اللاتي لا
يقرأن الشعر.

لكن لا أحد يخرج من أرض اللاعودة، لا أحد حتى
الآلهة إلا أن يستبدل أحداً مكانه، لذلك أحاطت
شياطين الجلا بإينانا وهي تخرج من العالم السفلي
كي تجلب بديل إينانا للجحيم، لكن من يكون بديل
إينانا في الجحيم؟ كلما مرت إينانا على أحد يتوسل
إينانا أن تختار غيره حتى وصلت إلى حبيبها

ديموزي الذي كان مشغولاً عنها بالعطور والثياب
الفاخرة والخمرة والشعر والموسيقى.

- خذوه، صرخت إينانا بشياطين الجلا، خذوه إلى
الجحيم وليذق طعم الموت المرّ مع أنه لا توجد
مرارة أكثر من أن تعود إلى حبيبك فلا تجده
بالانتظار.

هجمت الشياطين على الراعي ديموزي وضربته
من كل صوب بالسيوف والخناجر والرماح والسهام
والهراوات، وقيدته بالسلاسل، وكسرت نايه المطعم
بالزمرد وعلقته في رقبتة، وراحت تجره وحيداً بلا
ناصر ولا معين إلى العالم السفلي حيث لا عودة.

مات ديموزي فحلّ الشتاء في سومر وحزنت
الأشجار حتى تعرت من أوراقها، ذبلت السنابل
ومات القمح وغادرت الأزهار عطورها ونبت
الشوك في الشرفات وخرجت النسوة يلطنن وينحن
على ديموزي ويقدمن العزاء إلى أخته كشتن أنا

التي شقت ثوبها ولطمت خدها وذرفت دموعها
وغضبت على سومر وأرسلت القيظ يحرق
الخصب، فأصبحت سومر كلها تقيم العزاء في شهر
تموز من كل عام عندما تشتعل الأرض بنار
الصيف.

إينانا إلهتنا الطيبة قامت تتوح هي الأخرى على
حبيبها ديموزي وغفرت له بروده عند استقبالها
وراحت تبكي عليه حتى تكسرت قلب جميع الآلهة
وعقدوا صفقة مع إريشكجال بأن تخرج ديموزي
من العالم السفلي كل ستة أشهر، وتعهدت أخته
كشتن آنا أن تحل محله في الجحيم عندما يأتي في
أول نيسان، يأتي بالربيع ليحيّ الأرض وينشر
الخصب والنماء.

قفزت شامات الكاهنة في حوض البركة التي يستلقي
بداخلها الأمير خايا وجلست على سُرته ورفعت صوتها
عالياً:

- غداً أول نيسان يا أهل سومر، غداً يعود ديموزي
للحياة ككل عام، لتبدأ احتفالات الخصب المقدسة،
لتذهب عذراوات سومر للمعابد في الغد وليهبن
أنفسهن لأول عابر وليستسلمن له فلا نعلم بمن
سيتجلى ديموزي في الغد، فليحرث الرجال أجساد
النساء ولتطعم النساء أجمل ثمار أجسادها للفلاحين
الذين يعودون من الجحيم ويعبرون الشتاء في رحلة
العودة منتصرين على الموت، عائدين بمحاربيهم
العظيمة ليحرثوا أرض الآلهة ويدوم نسل سومر
حتى الأبد.

وانصاع الجميع لكلام شامات كاهنة معبد آن وبدؤوا
يمارسون طقوس الخصب المقدسة. لم يبق غير سومر وحيداً
لم يفارق قيثارته يعزف للمصلين ويفي لدلمون وعده بآلا
يمس جسده غيرها، غارقاً في ليلة أول نيسان الماضي وكيف
جاءت دلمون تخبره أنها ستشارك غداً في طقوس الخصب
المقدسة وإنها لا تريد سواه لتخليصها من نذرها وفكاكها من
هذا الواجب المقدس متجاهلة كل تحذيرات أبيها الكاهن

الأعظم بجرمة إخبار أحد بموعد استعدادها لتقديم جسدها
قرباناً لطلب النماء والخصب لأرض سومر.

عيد الخصب

السانكا العظيم أوتونابشتم علم أن دلمون خانت قوانين
الآلهة وأخبرت سومر بقدومها للمعبد مع أول خطوة خطاها
نحو باب المعبد بعد أن ارتقى سلم الزقورة الطويل. كان
سومر نائماً على البلاط البارد ملصقاً جسده نصف العاري
بباب المعبد، انحنى أوتونابشتم بهدوء ومد يده نحو سومر
وخاطبه برقة:

- انهض يا سومر فبعد قليل ستبدأ مراسم طقوس عيد
الخصب المقدس وستدهسك الجموع.

يبتسم سومر قبل أن يفتح عينيه ثم يحوّل أوتونابشتم
بذراعيه ويقبله ويقول:

- لن يستطيع أحد أن يتقدمني فأنا أول رجل في أور
كلها أنتظر تلبية نداء الآلهة هذا العام.

- لم أعهدك متديناً إلى هذا الحد يا سومر فما الذي
جرى؟

يكتفي سومر بالضحك بينما يسأله أوتونابشتم:

- هل أحضرت معك قطعة من الفضة كي تلقيها إلى
من ستختار من العذارى حتى تشتري قبول إلهة
الحب إينانا فتهبك جسدها المقدس؟
- لم يخبرني أحد بأن علي ذلك، ألا يمكن أن أعطيها
لاحقاً؟

- لا، لا يمكن لك ذلك،
ويمد أوتونابشتم يده في جيبه ويخرج قطعة فضية
ويضعها في راحة سومر ويقول له:

- عليك أن ترمي هذه القطعة الفضية في حجر
العذراء التي ستختار وتقول لها: "أضرع إلى الإلهة
إينانا أن ترعاك" وتأخذها خارج المعبد لتعيد مشهد
زواج ديموزي الراعي ملك الخصب بإينانا العظيمة
ملكة النماء. بقي شيء أخير أتمنى أن تعرفه وهو أن
هناك من العذارى من لا تكون جميلة بعينيك ربما
لنقص ما بجمالها أو بخلقتها فأعلم بأن الآلهة
ستشكرك أكثر لو اخترتها وجعلتها ترجع سريعاً إلى

بيتها بعد أن تتحلل من نذرها، فهناك عذراوات
مازلن يجلسن في المعبد منذ ثلاث سنين.

- سيدي السانكا المعظم أعتقد بأنك قد تأخرت عن
عملك فهناك أشياء أهم من نصحي تتطلب منك
القيام بها أليس كذلك؟

- لم يعجبك كلامي يا سومر لأنك حددت مسبقاً أية
عذراء ستختار، لم أكن أنوي أن أؤثر على حقك في
الاختيار فأنا أؤمن بأن الراعي ديموزي اليوم يقوم
من عالم الموتى ويتجسد في شباب سومر وأن إينانا
اليوم تتجسد في أجساد عذارى سومر، فكل زواج
يتم اليوم هو في الحقيقة بين ديموزي وإينانا.

- هل مازلت تعتقد بأنني إله؟

- وهل هناك بشرٌ بكل هذه الحماسة؟ الآلهة فقط تنام
على أبواب المعابد وتزرع الحب.

تعلو الشمس فوق سلم الزقورة ويمتلئ المكان بعطر
الربيع وعرق فحولة الشباب وضحكات الأمهات بملابسهن

الملونة وبمعاكسات الآباء لهن وهم يشجعون أبناءهم على حراثة الأراضي البكر، بينما وقفت تار تمسك بيد شارا وتضع رأسها على كتف لالا، يرقبون تسمر سومر في الصف الأول وهو يدفع كل من يريد أن يتقدمه. ليس بعيداً من المعبد تقف عربية مغطاة بالورود لا يرى من أحدٍ فيها إلا قدمي شابٍّ مخمور نائم بالمقلوب يتدلى رأسه تحت ذيل الحصان. بالطبع إنه أنودال صديق سومر الذي ينتظره بالعربة. لا بد أن يكون أنودال يحب سومر محبة عظيمة إذ يفوت على نفسه متعة هذا العيد ويقف بعيداً ينتظر أن يأخذه حيث أعد له مكاناً خارج أسوار المدينة.

تتعالى الأصوات عندما يفتح الكهنة أبواب المعبد فيتقدم سومر يشق صفين من العذارى كلهن يحاولن إغراءه بحركات لا وجود لها في طقوس العيد، لا يلتفت سومر، يعبر أميرات أور، عذارى تجارها، ملاحيهن، صياديهن، فلاحيهن، قادتها العسكريين، يعبر العذارى عذراء تلو عذراء نحو دلمون وعلى بعد أربعين خطوة يراها تجلس واضعةً تاجاً من حبالٍ على رأسها وتنتظر، عيناها ترقبان دفتي

الباب، قلبها يرقص خوفاً، قلقاً، تأخذه زوارق الحيرة
وتأرجحه أمواج الصور، صور سومر التي تأتي وتبتعد،
صدر سومر، عنق سومر، راحتي سومر، سرّة سومر،
شفتيه، قرصي عينيه الأسودين، بياض مقلتيه النقي الراقص
في بحر النور، قلبها يمارس الغواية مع كل صورة ويعيد
الغواية آلاف المرات، يقفز نحوها كجرادة بريّة وينحني
عليها كرأس سنبله يستريح أعلى التّلة ويضع يديه تحتها
ويحملها فتتمتم في أذنه وهي تضع خدها على صدره
المتعرق وتخبي أنفها داخل إبطه: أن ليس هكذا الطقوس،
فيجيبها وهو يحملها ويركض بها نحو العربة:

- فلتذهب الطقوس وكل الآلهة إلى الجحيم.

وبركلة سريعة من قدمه على رأس أنودال يفز
الصديق المخمور ويسحب الحبل فتنتطلق عربة الراعي
والجميلة، تشق الطرقات بجنون وتعبر أشجار الليمون التي
بدأت تتفتح أزهارها وتنمو براعمها الصغيرة وسومر يلصق

شفتيه بشفتي دلمون ليتنفس كل منهما بقايا الهواء في رئتي
الآخر.

راح أنودال يبتعد عن بوابة أور الكبيرة ويسير بمحاذاة
النهر الذي اغتسلت فيه إينانا فحولت كل قطرة ماء فيه إلى
جوع كافرٍ يصرخُ وجعاً شهياً لا تمس جسم رجلٍ حتى
يشتهي أن يذوب في حضن امرأة، ولا تمس جسد امرأة حتى
تتمنى أن تحترق على صدر رجل. يتمايل أنودال مع تمايل
عربته التي بنى على عجالاتها بيتاً قصيباً يشبه أقفاص
العصافير التي كانت تزين بيوت لارسا وأور ولكش وأروك،
وجعل له باباً من جلد جاموسةٍ مرقطة يجمعها عادة ويربطها
بخيطٍ أعلى الباب، وما أن يفتح هذا الخيط حتى ترتمي
وتخبئ أسرار الغرفة المفروشة بالقشّ وأوراق العنب، كما
جعل للغرفة كوةً صغيرةً مفتوحةً على الدوام ملأ فتحتها
اليوم بورد القداح كي ينعش ذائقة العاشقين، وراح يغني
بصوت يرتفع شيئاً فشيئاً مع ارتفاع الأنفاس القادمة من
الكوخ القصبي الصغير الذي يسحبه.

توقفت العربية بين بيوت الفلاحين العائمة على النهر،
ونزل سومر ودلمون سكارى وصعدا بقارب ركنه لهما
أنودال بجرف النهر، ووقف يراقب سومر وهو يجدف ببطء
بينما كانت دلمون مشغولة بالبحث عن مكان لوجهها على
تضاريس صدر سومر وبين فخذه، وراح القارب يتهادى
متعرجاً بين البيوت القصبية والمشاحيف الكثيرة التي كانت
تمر من هناك والتي توقفت خاشعةً يركع أصحابها على
ركبهم ليعطوا لهذه اللحظة البريئة ما يليق بها من القداسة
والتمجيد. واصل القارب رحلته نحو بيت أنودال العائم وسط
النهر.

تقف دلمون على عتبة بيت أنودال ويمر إنليل بالصدفة
فيسهو عن الخلق ويقف يمارس حماقاته بالعبث بشعرها
فيغار أن فيأتي بزورقه السماوي يمد أصابعه الخفية ويتمسح
بشفتيها وينزل قليلاً قليلاً مبتعداً عن الشفتين ويرغب بالسفر
نحو نهديها فيركض إنكي ويأخذ المشحوف من سومر
ويدفعه داخل البيت فتتبعه دلمون ويمسك بيدي إنليل وأن
ويبعدهما عن بيت أنودال.

تبحر أصابع سومر فوق أرض دلمون بلمسة ساحر،
تختفي الأصابع خلف العنق المليئة بالطلاسم والمجهول، لم
يصل قبله إنسان هناك، وتبحر دلمون فوق جلد سومر الذهبي
وتغرق، ويصعد صراخها طلباً للمساعدة بالخلود في هذا
الغرق، تشعر يديه بالخدر وهما يقفان على تلة دائرية يشقها
الطريق إلى كهف القداسة الأول إلى نصفين، بينما تشعر
شفتيه بالعطش في الصحراء الممتدة بين القباب الصاعدة
للسماء السابعة والوادي السحيق النازل إلى قرارة الأرض
الأربعين.

تنصهر الصرخات سوياً، تمتزج الشهقات مع بعضها
ومع الزفير، يلتفان حول بعضهما كالأفاعي المنقوشة على
قيثارة معبد إينانا، يحاولان أن يريحا روحهما الواحدة
المنفصلة في جسدين غريبين، يحاولان التوحد والذوبان في
جسدي بعضهما البعض، لكن المادة لها قوانينها ويبقى جسد
دلمون شهياً قائماً بذاته، رطباً، لذيذاً كعنقود عنب، ويبقى
جسد سومر قائماً بذاته دبقاً شهياً كعذق رمان، وتبقى الرغبة
في كليهما عاصيةً على الخفوت، فيكرران المحاولة تلو

المحاولة إلى أن يهدهما التعب ويدركهما الغروب وصوت
أنودال الذي يصرخ :

- كل العشاق عادوا إلى أور ولم يبق غير سومر
ودلمون.

يقفزان إلى النهر ويغتسلان، يتركان حرارة فشل
التوحد في جزيئات قطرات الماء تنتقل جيلاً بعد جيل تروي
للعالم قصة حب هنا بدأت بين ديموزي وإينانا وستبقى تلهب
مشاعر الذكر والأنثى في كل حياة وفي كل عالم.

شيئاً فشيئاً بدأ التعب يزحف نحو عيون المحتفلين في
بيت الأمير خايا، بعضهم ناموا على الأرض وبعضهم
خرجوا يحملهم عبيدهم، لم يبق غير كاهنة المعبد ترقص
فوق بطن الأمير خايا الذي أوعز لأحد الندامي برأسه
فاقترب الأخير من أنودال وأعطاه كيساً أطرب أنودال لسماع
محتوياته، فأمسك بيد سومر وجره نحو العربة وراحا
يرجعان في طريق تزينه المشاعل باتجاه بيت للا التاجر.

في تلك الليلة كانت شارا زوجة أوتونابشتم في بيت للا
على غير عاداتها بلا عبيد أو وصيفات جاءت وحدها
وأخبرت تار وللا بسرّ خطير يحاول القصر الملكي إخفاءه.
وصلت عربة أنودال إلى بيت سومر قبل الفجر بقليل
وكان للا في انتظارها وقبل أن يتدارك الصديقان الأمر قال
للا:

- تعال يا سومر، لدي أمرٌ هام أريد أن أخبرك به
وأحضر معك أنودال. أدار للا ظهرة وتوجه إلى
غرفة تار وراحا يتبعانه مثقلان بالخمير وبالذهول.
قال أنودال لسومر متمماً:

- هل يريد أباك أن يسحب مني الحصان؟
- أظن بأن الأمر أكبر من الحصان.
- هل يقتلني؟
- دعك من هذا المزاح الرديء ولنرى ما يريد أبي في
هذا الوقت المتأخر.

تجلس تار في غرفتها تصطنع عدم المبالاة مع مسحة
حزن جنوبية تغطي وجهها السومري، يدخل سومر وأنودال
ويجلسان مقابل تار وللا الذي نظر في عيني أنودال ووجهه
كلامه إلى سومر:

- لقد وصلتني أخبار بأن كل مراكبنا القادمة من مجان
قد غرقت في مياه العمق الجنوبية وما أن يصل
الخبر إلى أور حتى ينبذنا الناس وربما يقتلني الجند
فأنت تعلم صرامة قوانين أورنمو الأخيرة المتعلقة
بالتجارة والدين وتأجير المراكب.

- لكننا نملك الكثير من المال يا أمي، أليس كذلك؟
- دعك من أمك يا سومر ولا تهرب من حقيقة أننا
خسرنا كل شيء.

- لكن أليس هنالك من طريقة لعمل شيء. قال أنودال
وهو ينظر بعيني للا وتار وكأنه يجاريهما بأمرٍ لا
يعرفه.

- لذلك أتيت بك يا أنودال، عندي صديق في مجان
وبيننا مشاركة عمرٍ بأكمله، ولقد كتبتُ له رسالة
بإقراضي كمية من المال لأستطيع الوقوف مرة
أخرى على قدمي في السوق، وأريدك أن ترافق
سومر في رحلته إلى مجان، ولقد أرسلت أيسو إلى
الميناء يُعد لكما مركبي الخاص وسيرافكما ستة من
العبيد. هل تريد أن تودعَ أحداً يا أنودال قبل أن
تسافر؟

- أنتَ تعلم بأنني لا أملكَ أحداً في هذا العالم غير
سومر وما دام معي فأنا أملك كل العالم.
ثم يضرب أنودال على مؤخرة سومر الذي بان على
وجهه آثار الخراب بعد أن أحتلته جيوش الحزن وقال:
- هل نستطيع أن نبحر غداً يا أبي؟

أدار للاً وجهه نحو تار التي تقدمت من سومر
ووضعت رأسه بين عنقها وصدرها وراحت تهمس في أذنه:

- بل ستذهب الآن للميناء يا سومر وتبحر إلى مجان
وتعود بالمال الذي يجعلنا نمشي مرفوعي الرأس
وسط أور قبل أن يسمع أحدٌ بما حدث، أنت ابني
الوحيد وإلهي الذي عجزت كل أمهات سومر عن
إنجابه، ستكتم شوقك وستصبر على لوعتك
وستسمع كلام أمك تار، أليس كذلك يا سومر؟

- نعم، يا أمي، لكن قبلي عني دلمون وخبريها ألا
تحزن، فسأعود قريباً، ولا تنسي أن تعطيها صندوق
هداياها، لقد وضعته تحت سريري.

تأخذ تار سومر إلى غرفته وتخرج صندوقاً خشبياً
كبيراً وتبدأ بجمع أغراض سومر. كان من الممكن أن تطلب
من أحد عبيدها أن يقوم بهذا الأمر، لكنها أرادت أن تقضي
أطول وقتٍ ممكن مع سومر وتحاول أن تخفف عليه جزعه
وتهبه مزيداً من الحب والدفء الذي يحتاجه في هذه اللحظة.
في أرضية البيت كان يقف للاً مع أنودال ويهمس له
بصوتٍ خفيف:

- لقد اخترتك في هذه الرحلة مع سومر كي يتشجع
على الذهاب ولا يمانع أو يتململ ولأنني أعرف أنك
تحب سومر أكثر من أي شيء آخر، أكثر حتى من
مجونك، كل ما أطلبه منك أن تكون له كأنكيدو
لكلكامش. خفف من سكرك قليلاً وانتبه لسومر فإني
أأتمنك عليه.

يهز أنودال رأسه بالإيجاب ويذهب مع للا ويفتحان
حصانه ويربطانه في بيت الحيوانات الملاصق لإسطبل
أوتونابشتم، ومع وصول سومر وعبدین آخرين يركب
الجميع عربة تار ويتوجهان إلى الميناء. أدار أنودال ظهره
بالصدفة بعد أن تحركت العربة وشاهد شاراً تراقب المشهد
من شباك غرفتها، أدار وجهه إلى بيت للا فشاهد ذات
المشهد يتكرر من شباك تار وكانت تبكي، من الطبيعي أن
تبك الأم لفراق وحيدها القادم تواء من السفر والراحل بذات
اليوم نحو سفرة جديدة، لكنه لم يكن قادراً على فهم دموع
شاراً، خُيِّلَ إليه أن عيني شاراً كانتا مليئتين بالدموع .

كان أيسو قد اكمل استعداداته للإبحار، وقبل أن تشرق الشمس كان سومر وأنودال يبتعدان عن ميناء أور ويدغدغان ماء الفرات برجليهما. كان سومر هادئ كالصباح بينما اكتفى أنودال بترك قدمية داخل النهر محدثاً بعض الضجيج المهزوم الذي لا يقوى على كسر صخرة الصمت التي حجزت المرح عن الوصول إلى قلب سومر.

لم ينجح أنودال - الواقف في هذا الصباح يفكر بطريقة ما كي يعيد السعادة إلى صديقه سومر - ولليوم الثالث على التوالي على تحطيم سور الكآبة الذي اختبأ سومر خلفه، لقد جرب كل شيء تقريباً، عزف على القيثارة حتى حبس الإله أوتو شمس ذلك النهار وأطاله على غير عادته وهو سكران طرباً بموسيقى أنودال التي كانت تحاكي ذلك اليوم الجميل الهادئ الأزرق من أيام نيسان، مما سبب غضب الإله نانار الذي جاء بقمره قريباً جداً من مركب لئلا وسرق ساعتين من نهار اليوم الثاني وهو يراقص حبيبته ننجال في ذلك المساء الأبيض بعد أن أحاطت بهما النجوم البعيدة، وكأنها حجزت لها مقاعد في السماء القريبة من نهر الفرات لتستمع لعزف

أنودال على الناي، حاول أنودال أيضاً جر سومر إلى الرقص بعد أن راح يضرب على صندوق حاجيات سومر الخشبي ويكمل اللحن بضرب قدميه على أرضية المركب الخشبية المجوفة، أنودال خبيرٌ بصناعة ألحان الموسيقى من أي شيء يضع يديه عليه ومن أي شيء لا يضع يديه عليه، حتى إنه يصنع الموسيقى بفمه دون أدوات موسيقية، كانت موسيقى الصندوق لا تختلف عن أي موسيقى طبول صاخبة حتى أن العبيد تركوا التجديف ونسوا للحظة أنهم عبيد ولا يحق لهم أي شيء بدون إذن سيدهم وراحوا يرقصون بفرح مما أثار سخط سومر عليهم وصرخ بهم للعودة إلى عملهم فهو يريد العودة أكثر مما يريد الوصول إلى مجان، لكنه يدرك أن لا عودة قبل الوصول، قطع صوت الصمت الذي تركه صراخ سومر، صوت قطعة من داخل صندوق سومر الخشبي مما أفزع أنودال ورجع إلى الوراء، ثم تقدم من جديد إلى الصندوق وفتحه، وأخرج القطعة التي اشتراها سومر لدلمون من لكش ووضعها بين يدي سومر الذي لم يفهم لماذا خبأت أمه تار قطعة دلمون في صندوق حاجياته.

ربما أنها تستشعر وحدته التي لن يؤنسها غير شيء
ماء، شيء حي، له روح يربطه بدلمون.

يتترك أنودال مقدمة المركب ويسير إلى المؤخرة ويقف
ينظر إلى وسط النهر الغاضب، يراقب أمواج النهر التي
تسير بسرعة عكس سيرهم وكأنها تحاول ثنيهم عن مواصلة
الرحلة، لم تخطر له بعد أية خاطرة تساعد على استعادة
الفرح إلى سומר.

الرجل العجوز

كان سومر في هذا اليوم يجلس يطعم قطة دلمون في صمت والعبيد مازالوا يجذفون وأيسو أبحر بالمركب بالقرب من الجرف حيث التيار الهادئ، عندها سمع الجميع صوت رجلٍ يرجوهم أن يقلوه معهم، أمر سومر العبيد بالتوقف عن التجديف وراح المركب يسير ببطء مقترباً من الرجل العجوز الواقف على الجرف في الجهة اليمنى للمركب، وقف سومر ورفع صوته باتجاه الرجل:

- هذا ليس مركباً للنقل يا سيدي، نحن تجار ولا نمزج بكل الموانئ.

- وأنا لا أريد أن أذهب لمكان محدد، أين ما أردتم إنزالي سأنزل.

أجاب العجوز وراح يسير على الجرف مع مسير القارب.

- ألا تعلم أين تريد الذهاب؟

سأله أنودال مستغرباً وهو ينظر إلى سومر ويبتسم
وكأنه يشير إلى أن العجوز مجنون.

- أردتُ النزهة فقط يا أولادي، وسأفهم إن لم تتوقفوا.

أجاب العجوز بابتسامة وتوقف عن اللحاق بالمركب،
لم يعلم العجوز وربما يعلم أن ابتسامته خرقت قلب سومر،
فأمر العبيد أن يساعدوا العجوز على ركوب المركب.

بعد أن جلس بالقرب من سومر، نظر إلى الطريقة التي
كان يطعم بها القطة ثم نظر إلى أنودال القادم نحوهما وبعد
أن شاهد تعرق العبيد وأصوات لهاث أنفاسهم المتقطعة،
أخرج من صرته تيناً مجففاً وقدمه إلى سومر فشكره ولم يمد
يده لكن أنودال مد يده وأخذ حبتين، علم العجوز بأن سومر
هو السيد على هذه المركب. بعض العجائز عصيون فعلاً
على الفهم، لا تعلم هل هم سحرة أم أنها مجرد مصادفة أن
يعلموا ما في قلبك أم أنهم يملكون قلوباً شفافة تستطيع
الغوص داخل قلوب الآخرين.

- هل تسمح لي أن أقدم بعضاً من هذا التين إلى عبيدك
يا سيدي؟

سأل العجوز سومر بكل رقة وأدب وجمال.

- أنا لا أمنع عنهم شيئاً يا سيدي وأطعمهم من طعامي.
- لم أقصد أنك تقسوا عليهم لكن هي مجرد تحلية
وأحببت أن يشاركني بها الجميع حتى هذه القطعة
التي تشبه قطط دلمون.

نظر سومر إلى العجوز بغرابة ثم نظر إلى أنودال
فوجده فاتحاً فاه مشدوها وهو ينظر إلى العجوز. قال سومر
بارتباك:

- نعم، لا بأس، وسأخذ أنا أيضاً واحدة ما دمت تحب
أن يشاركك الجميع .

مد سومر يده وأخذ تينة من يدي العجوز الذي أعطى
القطعة حبة تين صغيرة وراح يطعم العبيد بيده، يأخذ تينة
وينظر إليها وينظر إلى عيني العبد ويبتسم ويضعها في فمه،
وأخيراً وضع باقي الصرة في حزن إيسو وغمز له في

إشارة فهمها أيسو على أن عليه أن يطعم العبيد الآخرين كلما شعروا بالضجر.

ما إن أكل سومر حبة التين الناشفة تلك حتى شعر وكأنه كان مريضاً وغادره المرض، شعر كأنه أفرغ حمله الثقيل وعاد الانتصاب إلى قامته المحنية، شعر لأول مرة بوجود أنودال معه في رحلة بحرية، هذه الرحلة التي كانت لهما حلم، شعر بغبائه أيضاً، ما أغباه وهو يعيش الحلم ولا يدري ثم يرفع رأسه ويراقب العجوز الذي راح يقترب منه بخطوات متباطئة، قدماه ترتجفان خوفاً أو ربما عدم اتزان، يجلس قريباً من حافة المركب، يضع عصاه على حجره ويحك لحيته البيضاء صعوداً إلى أذنه ويدخل أصبعه السبابة داخلها ويفركها بسرعة، كمن يحاول أن يخرج منها ذرات تراب عالقة، ثم وبدون أن ينظر إلى سومر يسأله:

- إلى أين أنتم ذاهبون؟

- إلى مجان. يجيب أنودال ويسأله: - هل ذهبت إلى

هناك؟

- مررت عليها خلال رحلتي إلى أندوس، لكنني لم أنزل فيها، لم أكن أمانع لو أن الملاح الذي أخذنا قد نزل هناك، لكنه أكتفى بأن يشير لها من بعيد ويخبرنا أن هذه الأرض تسمى مجان وأن ملوك السومريين يصنعون سفنهم الحربية هنا ولم يقل أكثر من ذلك ولم نسأله عن المزيد فسكت وسكتنا.

- هل ذهبت إلى أندوس يا سيدي؟ سأله سومر بفرح واندهاش.

- نعم وذهبت إلى أبعد من ذلك.

- وماذا كنت تصنع؟ هل كنت تاجراً؟

- بل كنتُ غيباً.

- كنتَ غيباً؟؟

يصرخ أنودال بقهقهة هستيرية وكاد من فرط الضحك أن يقع من المركب إلى النهر، لكنه أسرع بالإمساك بحافة السقف المتدلية من المنزل الخشبي الذي كان يجلس تحته

العجوز وسومر الذي حرق بأنودال مطالباً إياه بإظهار القليل من الأدب وهو يتحدث مع العجوز ثم يسأل العجوز برقة:

- ولماذا كنت غيبياً؟

- كنتُ أبحثُ في المكان الخطأ عن شيء لا وجود له.

- وعما كنتُ تبحث؟

- عندما كنت بعمرِكَ كنتُ أبحث عن الخلود، ذهبت نحو الشمال فأشاروا عليّ بالجنوب، رجعت إلى الجنوب فأشاروا عليّ بالجنوب أيضاً حتى وصلتُ إلى دلمون، عندما وصلتُها لم يكن الكثيرون يعرفونها كما الآن، كان القليل جداً من الكهنة والعسكر ورجال الملك من يعرفون مكانها، كانوا يتكتمون على مكانها وكانوا يوهمون الناس أنها غير موجودة في هذه الحياة، وأن الآلهة فقط يمكنهم العيش هناك وقليل من الملوك والرهبان الذين يخدمون الآلهة بإخلاص.

حين دخلت دلمون لم يكن أوتونابشتم الخالد
باننتظاري ولم أهتد لنهري العسل واللبن، وسمعت
نعيب الغراب وصوت استغاثة الغزال ممزوجة
بالمرارة واليأس وهي تحاول الموت بسلام بين فكي
الأسد الذي لم تنسيه دلمون حلاوة الاقتراس.

قعر مياه دلمون مظلمة والمحار يصرخ من ألم في
الخاصرة، لا أثر لنبتة الخلود ولا إلى أفعى تحترف
السرقعة.

دلمون ليست سوى مقبرة، أين ما أدت بصري
وجدت قبراً، قبور لملوك سومريين طامعين في
الخلود، قبور كهنة حالمين بلحظة حياة أخرى، قبور
عشاق ينتظرون عشيقاتهم عند بوابة العالم الآخر
التي صدئت أقفالها في ملح اليأس باننتظار مفتاح
تائه.

في إحدى المقابر التي هرمت ومات سقفها، لم أجد
سوى عظام يائسة تركها الدود بعد أن عجز عن

امتصاصها، كانت تصرخ من الوحدة المخيفة
الموجعة، يبست حولها أقراص الخبز وجفت أكواز
الخمير التي تركها أحبابه، ولم يأت الملاح من العالم
الآخر لإنقاذ ذلك الجسد من أسنان الديدان وثقل
الغبار ووحشة المصير.

لم أقتنع بما رأت عيناى فركبت البحر نحو أندوس
عني أجد هناك آلهة أخرى تنقذ أتباعها من الفناء.
عبرت البحار والموانئ والغابات، تعلمت لغات
جديدة وعبدت آلهة كثيرة ومارست طقوساً غريبة،
لم أحصل على شيء، أسماء جديدة لنفس الآلهة
القديمة تعد أتباعها بدلمون أخرى تختلف باختلاف
حاجات البشر، دلمون من أشجار فاكهة طازجة
وماء بارد لساكني الصحراء، دلمون من شمس لا
تغرب للمحتاجين إلى الدفء والخلص من البرد،
دلمون بلا وباء للموبوتين، دلمون بلا ضجر
للمترفين حتى وصلت إلى أقوام لا يعرفون سوى
أنهم جاءوا من اللامكان وذاهبون من حيث جاءوا،

علموني العزف على الناي والرقص في الليالي
المقمرة والشواء في الأيام الباردة، دلوني على
خريطة جسد المرأة وطريقة الإبحار إليها وعلموني
أن ألم الغرق في أعماق رصاب أنثى هو ألد من
فرح النجاة من حطام مركب في أعماق البحر.
أدركت حينها أن الخلود الذي أبحث عنه ليس سوى
خلود اللحظة، تكون خالداً في لحظة استماعك إلى
نغم جميل وتمتد تلك اللحظة أكثر كلما كانت شفة
العازف أقرب إلى تقبيل الناي من العزف عليه،
تمتد اللحظة أكثر عندما تمد شفتيك وتقبل تلك الشفة
العازفة من غير أن ينقطع اللحن وتتوقف الموسيقى،
تمتد لحظة الخلود تلك أكثر عندما تكون بكلك
تعزف على تلك الشفاه.

في هذه الأثناء يضحك العجوز بقوة ويهز رأسه ويسأل

سومر:

- أتعلم ما هي المفارقة العجيبة في كل ذلك؟

- لا.

- المفارقة هي أن هذه المعرفة التي حصلتُ عليها كانت عند بغية في حانةٍ حقيرة لم تغادرها أبداً، مرّ عليها كلّكاش بالصدفة في طريقه وهو يبحث عن عشبة الخلود ولم يدرك أن تلك البغية تملك الحقيقة المطلقة. أتعرف ما قالت له:

- لا.

- قالت له: إلى أين تسير يا كلّكاش الغبي؟ الآلهة بحاجة إلى عبيد وليس إلى آلهة أخرى، إرم سلاحك وتخلّ عن الآلهة التي تريدك حطباً في حروبها التي لا تنتهي، تعلم الغناء والرقص والموسيقى والطبخ والحب، كن سعيداً وشارك سعادتك طفلك وزوجتك فذلك نصيبك من الحياة.

راح أيسو يغير مسار المركب نحو وسط النهر بعدما صعد مستوى المياه نتيجة المد وتغيّر اتجاه سير تياره من الشمال إلى الجنوب، وأيضاً لأن المركب لا يستطيع أن يسير

بحرية بالقرب من الجرف لأن النخيل في هذه المنطقة أكثر كثافة وأقل تشذيباً من بقية المناطق، المكان مازال بكرّاً ولم تمتد له يد الإنسان، كانت أشجار النخيل ملتصقة ببعضها - عادة ما تكون بهذا الشكل إذا لم تُفصل عنها فسائلها الصغيرة ولم تُزرع كنخلةٍ مستقلة - تكاد تحتل الجرف بكامله وتميل بجسدها النحيل أفقياً نحو النهر في حركة تكاد تشبه المتثائب الكسول حين يمد يده بعيداً.

في هذه الأثناء كان العجوز يتحدث مع أوندال في مؤخرة المركب، كان أوندال يهمس بأذن العجوز وقد بدا عليه الانكسار وهو يحرك يديه بعفوية بينما كان العجوز مطرق ويسمع له باهتمام، ثم تقدم العجوز إلى سومر الذي مازال يجلس بالقرب من حافة المركب ويداعب قطعة دلمون. جلس العجوز القرفصاء وقال لسومر:

- سوف نصل عما قريب إلى أريدو مدينة الإله أنكي، ما رأيك أن تقف قليلاً في أريدو وتقضي الليلة هناك وتتنزود لرحلتك إلى جمان، فهذه آخر مدينة قبل

المياه العميقة وستكونون ضيوفي، سأخذك إلى معبد
إنكي إله الماء والحكمة وإن شئت فقدم له القرايين
كي يجعل من المياه العميقة المتوحشة طفلاً رقيقاً
يداعب بيديه الصغيرتين أطراف مركبك، وأعدك
أنك ستمضي ليلة جميلة فأنت في عمرٍ لا يتكرر،
وعليك أن تنعم بهذه اللحظات لتكون لديك حطب
دفع تشعل به موقد شيخوختك الذي سيكون، شئت
أم أبيت، بارداً.

- أعذرني يا سيدي فأنا مستعجل جداً، إن لي أباً قلقاً
على مكانته بين الناس وأماً لم تشبع من رؤيتي
وعيني حبيبة لم أقدم لها القرايين منذ فترة طويلة.
- يبدو أن السبب الأخير هو السبب في كل هذه
العجلة.

يضحك الجميع بما فيهم أيسو الذي كان واقفاً بالخلف
كغمامة تظلل سومر، أيسو ليس مجرد خادمٍ في بيت للا، فقد
كان بمثابة الحارس الشخصي لسومر واليد اليمنى لأبيه

التاجر للا، لقد أنقذه للا من الغرق منذ عشر سنين في أوروك حينما كان مصاباً في بطنه ومرمياً في الماء، كان عمره تسعة عشر عاماً وكان فاقد الوعي وينزف من خاصرته، طعنه المارتو مع أنه واحد منهم، ذنبه أنه كان يعشق امرأة أرادها فتى مدلاً يلحق العسل وتحرسه دبابير أبيه. لقد تزوج في أور ولديه صبي في السادسة من عمره وصبية لم تتجاوز بعد عامها الأول لكنه كلما توجه نحو الصحراء تذكر، فحن، فبكى.

مدد العجوز رجليه وساوى بجلسته وراح يضرب أرضية المركب الخشبية براحة يده اليمنى وينظر إلى أنودال بإشارة منه لأنودال بأن يجلس بقربه وبعد أن جلس أنودال وأمسك بعكازة العجوز، قال العجوز:

- إذن دعني أخبرك بشيء أخير يا بني، فأنا سأنزل في ريدو وربما لن نلتقي مجدداً، سأختصر عليك عمراً بأكمله وسأخبرك بالحقيقة التي وصلت إليها بعد كل هذا الترحال - هذا لا يعني بالضرورة أن

تكف عن البحث والسؤال - لكنك ستبدأ (على الأقل)
من حيث انتهيت أنا وستصل حتماً إلى حقائق لم
يكن بمقدوري أن أصل إليها أنا الذي ابتدأت من
اللاشيء. قد تسأل نفسك لماذا أنت بالذات؟ لا
لشيء، مجرد رفقة سفر في يوم جميل وصادف أن
مزاجي جيد للكلام.

إن سبب بحثي عن الخلود، عن دلمون، هو نفس
السبب الذي دعا كلكاش قبل أكثر من ألف عام إلى
الترحال والبحث عن الخلود من أجل إحياء صديقه
أنكيديو الذي ربما سيكون السبب بعد ألف عام أو
أكثر لرحلة بحثٍ جديدة، إلا أن الذي فقدته لم يكن
صديقي بل كان أمي. أصابتنني حالة من الحزن
الحارقة، أحسستُ وكأني عصفورٌ صغير سقط بعد
أول محاولة للطيران في متاهة شوك ولم يعرف
كيف يخرج، أصاب الشوك عينيه أول الأمر فأصبح
أعمى، كلما أراد الخلاص أكثر كلما زادت جراحاته
أكثر. أحسست بأنفاسي ثقيلة ولونها أسود، نعم

رأيتُ لون الهواء وهو يدخل إلى باطني ويخرج
وهو ذليلٌ مكسور. ما إن سمعت خبر وفاتها وكنت
أعمل في الحقل حتى هويت من فوري وجلست
القرفصاء، جلستُ على إيتيٍّ وضممتُ فخذي إلى
بطني وطوقتهما بيديَّ الاثنتين كالجنيين، لكن بقي
رأسي تائهاً يبحث عن جدار رحم أمه كي يستند
عليه ولا رحم، فأمي ماتت. راح رأسي يبرق
بالحمى وراحت عيناى تمطران وراح الدمع يسيل
بغزارة كالطوفان حتى وصل إلى فمي، وكان بطعم
الحليب الأول الذي رضعته أول مرة وتهافتت
الذكريات كلها دفعةً واحدة، عينا أمي وهي تسمعني
أناديها أول مرة بـ ماما، أصابعها وهي تتلمس أول
ضرسين صغيرين ينبتان لي في مقدمة فمي، خوفها
من أول جرح أصابني، تعثرت وأنا أسابق كلبي
"شابي" وأحاول أن أهزمه، كان جرحاً كبيراً
بالنسبة لطفل في الرابعة، تذكرتُ يديها وهي مشطي
ودثاري ومنديلي وموقدي وليفة حمامي وصابونتي

وعطري، كانت الذكريات تتدفق وصوتها بدا خافتاً
وراح يعلو شيئاً فشيئاً وهي تغني: "دللل يالولد
يبني دلالل". لم أكن أتقبل فكرة فقدانها وأنا لن
أراها مرة أخرى.

نعم يا بني، إنه الموت الذي جعلنا نخلق آلهة خالدة
تخلقنا وتبقينا خالدين بعد الموت.

الموت هو سبب ظهور الأديان والآلهة والأساطير،
فكرة العدم ترهبنا، أن ننتهي هكذا ببساطة هي أكثر
تعقيداً مما نستطيع أن نفهم، فكرة الحياة بعد الموت
فكرة جميلة تجعلك تعيش مطمئناً، حتى في
خساراتك وفي أحزانك، تعطيك الأمل وتجعل من
تقدمك بالعمر يبدو شيئاً جميلاً كاقتراب موعد
سفرك إلى مكانٍ تعشقه وكنت تترجى الأيام كي تمرَّ
بسرعة وتصل بك إلى يوم السفر، كما تفعل أنت
الآن لترجع إلى حبيبك التي تنتظرك.

عندما وصلت إلى دلمون ورأيت الضريح المفتوح
ذاك لم أجرو على تقبل حقيقة ما رأت عيناى لأن
أمي تنتظرني في مكان ما وأنا أريد أن أراها ثانية،
لذلك واصلت رحلتي إلى أندوس وما وراء أندوس
وأمي تناديني كل ليلة ولا أعرف أي طريق يقودني
إليها حتى رأيتُ شاعر تلك البلدة المنسية، أحياناً
أشكُّ بأنها موجودة، لا يدونون أعمال ملوكهم، ليس
لديهم جيش، بل صيادون يطعمون الجميع، ليست
لديهم طقوس مقدسة، لا يدفعون ضرائب للدولة ولا
رشاوي للآلهة كي تغفر أو تسقي الزرع أو تهب
الأولاد، كان الشاعر فرحاً وهو يدفن أمه في الغابة
ويزرع على قبرها شجرة وكان يأتي كل يوم
ويسقيها ويقول الشعر، لاحظت أن فرحه حقيقي
وليس مصطنعاً، فالفرح الحقيقي يصمد طويلاً
وعندما سألته عن السر قال:

- لا يوجد سر، لكني كي لا أشعر بالحزن العبثي
عندما يموت طفل صغير أو تنتهي حياة أم، فموت

الأطفال والأمهات يكون مؤلماً بقسوة ولا أجد
تبريراً له، أتخيلهم يمزحون مع الآلهة ويلعبون
ويرقصون ويغنون، وأتخيل الآلهة وهي تعتذر منهم
على نهاية حياتهم بأنها تحبهم أكثر من كل أحبابهم
وتريد لهم الراحة الأبدية والخلود الخالي من الألم.
لكن الإنسان ينسى أحياناً السبب الرئيسي لوجود
الدين ويتعصب لفكرة الإله ويصبح هو الموت الذي
يفر منه.

ثم يقف العجوز ويودع الجميع ويطلب من أيسو إنزاله
من المركب متى ما يستطيع الدنو من الجرف، ولم يتأخر
أيسو سوى لحظات ليست طويلة، وأوقف المركب ونزل هو
أولاً ثم أمسك بيد العجوز وأخرجه على اليابسة بهدوء،
ورجع إلى المركب ثانيةً ومسك المردى ودفع القارب عن
الجرف بروية، ورجع يقود القارب في منتصف النهر، وبعد
مسافة قصيرة لاح لهم ميناء أريدو من بعيد وسمعوا ضجة
الملاحين والصيادين.

دلمون

راح المركب يتهاذى مدفوعاً بقوة التيار نحو المياه العميقة، وعلى مسافة ليست بعيدة كان هناك مركبٌ معاكس لهم خفف من سرعته، وراح يصيح بهم أن يرجعوا إلى الميناء لأن البحر هائج جداً وأنه قد نجا بأعجوبة في الليلة الماضية، لكن سومر شكره وأشار للعبيد بمواصلة التجديف. نظر أنودال بوجه أيسو وأخذه إلى مؤخرة المركب وقال له:

- ماذا تقول يا أيسو؟

- أتقصد باضطراب أمواج المياه العميقة؟

- نعم

- عادة ما يكون مضطرباً بهذا الفصل من السنة، لكن يبقى أقل من اضطرابه في الشتاء. مع أن التوقف أفضل لكنك ترى عناد سومر ولا يمكن الجزم بتحسن الوضع في الغد، فتارة تستمر هذه

الاضطرابات أياماً متتالية. بالنسبة لمركبنا فهو قادر
على النجاة وهو مركب جديد ومن النوع الجديد.
رجع أنودال وهو يرقص ويقول لسومر قبل أن يصل
إليه:

- ما رأيك يا سومر لو رجعنا إلى أريدو وذهبنا إلى
أحد معابدها؟
- ليست كل المعابد تشبه معابد أور يا أنودال أم تراك
اشتقت إلى مجونك؟
- اشتقت للقليل فقط، ما رأيك؟
- لن تخدعني يا أنودال أنت خائف من كلام هذا
الصيد قليل الخبرة. لا تخف، أنت تبهر مع ملاح
قدير لن يجاريه بحارة أور بل بحارة سومر كلها.
دعنا نعمل يا أنودال وخذ لك عبيد وادخلا إلى
داخل المركب وحضرا لنا طعام العشاء، فالشمس
ستغرب عما قليل.

يدخل أنودال إلى القارب مع عبيدين ويقومان بإخراج
التمر المكبوس ويخرجان قليلاً من أقراص الخبز وبعض
الفاكهة، وفي هذه اللحظة يصرخ أيسو:

- كم أنت محظوظ يا أنودال

- ماذا؟ ما الذي حدث؟

- سنحتفل هذه الليلة يا أنودال مثلما أردت.

يخرج أنودال مسرعاً فيرى سومر وأيسو يضحكان
وهما يسحبان الشباك وقد علقت بها سمكة كبيرة من سماك
النهر، وكانت صامته حتى إذا ما دخلوا المياه العميقة المالحة
راحت تضطرب وتهز الشباك. ساعدهم أنودال وهو يرقص
فرحاً بسحب السمكة وراح يطلب من العبيدين بأن يرجعا كل
شيء إلى مكانه ويشعلا النار.

يذهب أحد العبيدين إلى الخارج ويحضر فخارية كبيرة
تشبه التنور غير أنها أقصر وأوسع وذات قاعدة سميكة وكأن
بداخلها حطباً، فيوقد النار، بينما يقوم سومر بفتح بطن
السمكة بعدما ضرب أيسو رأسها عدة مرات بمجدافٍ قديم

مكسور ثم تركوا أحد العبيد ينظفها، رش سومر قليلاً من الملح، بينما راح أيسو مع بعض المسامير الطويلة يثبت طرفي بطن السمكة بصورة مسطحة حتى صارت السمكة على شكل دائرة تقريباً وبعد أن خفتت النار وصار الحطب جمرأً وضعوا السمكة في أعلى فوهة الفخارية وراقبوها حتى نضجت قليلاً من الطرفين وأدخلوها داخل الفخارية كي يكتمل نضجها. كل هذه العملية كانت بتشجيع ورقص أنودال الذي أحضر نايه وراح يعزف لسومر وأيسو ويحثهم على إتمام العمل بسرعة، وبالطبع فقد حصل على عدة ركلات من أيسو وسومر لمحاولاته المتكررة بتذوق السمكة وعدم صبره حتى تنضج تماماً.

ما إن غربت الشمس أمر سومر العبيد بأن يتوقفوا، وتجمعوا كلهم حول الفخارية، وراح سومر إلى صندوقه، وأخرج فخارية نبيذ وجاء بها، وألقاها في حوض أنودال الذي جن جنونه فرحاً وراح يأكل ويشرب الخمر، وعبثاً حاول سومر وأيسو بأن يأخذانها منه، التفت سومر نحو أيسو وأخبره:

- إن في الصندوق فخارية أخرى يا أيسو، أعطها
للعبيد وتعال معي نخلص هذه الخمر الجيدة من يد
هذا المتوحش البدائي السكّير.
- لن نستطيع كل قوى العالم أن تخلصها مني.

استسلم أنودال أخيراً، فهو لا يستطيع مجاراة عضلات
سومر المفتولة، فكيف يستطيع تحمل ضغط أيسو متحداً مع
سومر؟!!

بعدما نام أيسو والعبيد والليل قارب على الانتصاف،
طلب أنودال من سومر أن يغني له أغنية قديمة كان يغنيها
سومر في بيت أنودال القصبي العائم، قبل سومر بشرط أن
يعزف أنودال على القيثارة. راح أنودال يعزف وسومر يغني
حتى أخذهما النعاس ونام الصديقان سكرانين شبعانين، نام
أنودال يحلم بشامات ونام سومر يحلم بأمه تار، رآها تبكي،
حاول أن يعرف السبب، لكنها راحت تبتعد واختفت في
الظلام الماطر وحالت الريح بينهما، ففزَّ سومر مرعوباً
ووجد السماء تمطر بغزارة، وشعر بقوة الرياح وهي تحاول

جذب القارب إلى أعلى، بينما يجذبه الموج إلى أسفل، صرخ
سومر على أيسو:

- أين أنت يا أيسو، أفق يا أيسو وأبحر بالقارب على
مقربة من الساحل.

أفاق أيسو مثقلاً بالسكر وراح يضرب برجله على
أجساد العبيد النائمين مغشياً عليهم من التعب ليعودوا إلى
التجديف، وبينما هم يتوجهون صوب الساحل زادت قوة
الرياح، فصرخ سومر بأعلى صوته:

- اللعنة عليك يا أشكور، ألم تستطع أن تصبر حتى
النهار وتقوم بتحريك رياحك؟ أظنني أخافك في
الليل؟

يبدوا أن أشكور لم يسمع نداء سومر وراح يعصف
بالمركب حتى وصل الموج إلى داخل البيت العلوي على
سطح المركب وهاج البحر كما لم يره أيسو من قبل، وراح
سومر يصرخ بالعبيد الذين توقفوا ولم تجد كل محاولاتهم في
الإبحار ضد التيار، فما عسى أن تصنع مجاديفهم الصغيرة

أمام أجنحة أشكور العظيمة التي ينفخ بها على المياه العميقة
فتنتصب كالجبال.

راح أيسو يحضر البراميل الخشبية المعدة للنجاة بعد
أن تأكد من أن المركب لن تصمد وستتحطم لا محالة، وربط
أنودال بأحد هذه البراميل ووضع في حزام ظهره مدية
صغيرة وربط سومر وسومر يدفعه لكنه استسلم للأمر وربط
نفسه بالبرميل، ثم تقدم منه أيسو ثانية وعلق مدية في حزامه،
وراح العبيد الآخرون يربطون أنفسهم كلاً ببرميله، وكان
أيسو آخر من ربط نفسه ببرميل النجاة مع احتفاظه بمدية
كبيرة نسبياً عن مديتي سومر وأنودال، وكان كما توقع
الجميع فالمركب لم تصمد طويلاً أمام هذه الأمواج الجائعة
وما هي إلا لحظات حتى اقتربت موجة كبيرة كالعنقاء
وابتلعت القارب، وراح الجميع يتصارخون على بعضهم في
هذا الظلام المخيف، لكن صوت الريح الغاضب من شيء
مجهول كان يثير جنون الأمواج فتصرخ بشدة كلما صفعت
بعضها البعض، مما كان يصعب على سومر ورفقائه سماع

أصواتهم، كان آخر شيء سمعه الجميع صوت أيسو وهو يوصيهم بأن يستسلموا للموج حتى يقذف بهم إلى الساحل.

في الصباح وعلى مقربة من الساحل الرملي الأبيض حيث يمتزج الرمل بالزبد ويتداخل اللونان المتقاربان بعملية إعادة خلق لكائنٍ جديد، كان يتدلى رأس أنودال من على برميله الخشبي المائل بينما كانت قدماه تختفيان في بياض الرمل الممزوج بالزبد ويداه على مقربة من ملامسة سطح الماء الذي يتحرك ببطء شديد يشبه مشية عجوز ضريع، يركض أحد العبيد صوبه بفرح من وجد حريته، صوته الأجلش من البعيد يقترب وأقدامه المتلبكة بثقل الماء والرمل تصدر الصوت الوحيد الذي يجعل المكان ينبض بالحياة، يحاول سحبه مع البرميل فيجد الأمر شاقاً فيلتف حوله ويبحث عن مكان عقدة الحبل المربوط بها أنودال مع برميطة كجنين ومشيمة ويفتحها، ثم يسحب أنودال الذي كان يتنفس بصعوبة ويلقيه على الساحل ويحاول إيقاظه بلطف، وبينما يفتح أنودال نصف عينيه يلتفت العبد إلى الوراء ثم يترك أنودال ويركض بضع خطوات ويعانق أيسو، كان العبيد

يعتبرون أيسو واحداً منهم فهو قريب منهم جداً ولم يعاقب أحداً حتى أنه لم يصرخ عليهم، وكان دائماً ما يأكل معهم وأكثر الأحيان يتفاجأ التجار عندما يعرفون من للاً بأن أيسو ليس عبداً وأنه مساعده الأمين، لأنه يتجنب الجلوس مع التجار ويفضل المكوث مع العبيد. يجلس أيسو عند رأس أنودال ويقول:

- علينا البحث عن سومر والعبيد الخمسة الآخرين، أخبرني حينما تكون مستعداً للمشي.

- دعني أرتاح قليلاً يا أيسو، دعني أتأكد أنني مازلتُ حياً.

- أتعلم، من الأفضل حقاً أن نصبر قليلاً، فطبقاً للون الساحل الشديد البياض فأنا أعتقد أننا على الضفة الأخرى من المياه العميقة، نحن على ساحل العيلاميين، وأخشى أن العداوة بين عيلام وسومر ستمنع الكثير من السكان عن مدّ يد المساعدة، علينا أن نضع البحر على جهة أكتافنا اليسرى ونسير

للأمام ونبحث عن سومر وباقي العبيد، لأن سومر
سيسير بهذا الاتجاه حتماً لأنه سيتجه إلى أرض
سومر فلا يمكن الوصول إلى مجان بلا مركب ولو
كان مايزال خلفنا فسيمر بنا، أما إذا كان أمامنا
فسنلتقي به قريباً أو نلتقي معاً في أور. سأفقد الغابة
القريبة من الساحل علني أجد شيئاً، أما أنتما
فانتظراني هنا.

- هل آتي معك؟

سأل العبد أيسو وكان يبدو على وجهه تعابير خوف إلا
أن - وكما هي الحال - في هكذا أوضاع تتداخل الأحاسيس
مع بعضها وتشوه نقاء الإحساس الواحد الفرد، لم يفهم أيسو
من تعابير وجه العبد غير الخوف، لكن هل هو الخوف عليه
من العيلاميين أم هو الخوف من البقاء وحيداً مع شاب ماجن
لا يملك الخبرة في النجاة لو أن شيئاً ما حدث لسيده أيسو.
لكنه قال أخيراً ووجه الكلام للعبد وأنودال معاً:

- لا تقلقاً فأنا أجيد اللغة العيلامية.

بعدما أدار أيسو وجهه وتوجه نحو الغابة واختفى،
جلس أنودال وراح يتفحص جسده من جديد ثم تمت بصوتٍ
منخفض:

- ما زال هذا الـ أيسو يفاجئني.

- هل قلت شيئاً يا سيدي؟

- لا، كنتُ فقط أتمنى أن نلتقي بسومر قريباً، ما رأيك
لو نفترق، تذهب جنوباً وأذهب شمالاً علنا نجد
سومر أو أحد العبيد ثم نعود نلتقي هنا؟

- نعم، لكن ماذا لو عاد سيدي أيسو ولم يجدنا؟

- لن نذهب بعيداً، سنمشي وننادي على سومر حتى
إذا لم يسمع أحدنا الآخر عدنا.

- نعم، هكذا أفضل.

سومر.. سومر.. صوت أنودال يعلو تارة ويصاب
بالبحة تارة أخرى، وبعد كل صيحة سومر يطلقها يسمع
صياح العبد وهو ينادي على رفقاءه بأسمائهم الواحد تلو
الآخر، ثم ينادي على سومر مرتين ويرجع يعيد الأسماء.

اقتربت الشمس من منتصف السماء وجاء صوت أيسو
ينادي على أنودال، رجع أنودال ببطء وهو يلتفت إلى الورااء
كل بضع خطوات وعلى مقربة من أيسو شاهد العبد قادماً
باتجاههما وحيداً. كان أيسو يحمل بيده اليسرى أرنباً مصاباً
بالقرب من رقبتة وقد أمسكه من قدميه، كان رأسه يتدلى
ويضرب ركبة قدمه اليسرى، وفي يده اليمنى كان يحمل
غصناً طويلاً وقد قطعه وصاغه على شكل رمح وكان دم
الأرنب لم يجف بعد من رأس الرمح الأحمر.

تمتم أنودال مع نفسه:

- ما زال هذا الـ أيسو يفاجئني.

- لم أجد ما يدل على أن هذه الأرض مسكونة، قال
أيسو مخاطباً أنودال، لا توجد آثار لبشر، يبدو أننا
وحيدون هنا، لكن ما أسعدني هو وجود نهر ليس
بعيداً من هنا كثيراً ويبدو أنه نهر جيحون الذي
سيأخذنا إلى بلاد سومر وعندها لن نكون بعيدين
عن أور.

- هل تقترح أن نذهب ونسير بمحاذاة النهر؟ قال أنودال.

- توجد هناك حيوانات كثيرة في الجوار، لذلك فإننا لن نموت جوعاً، إضافة لمياه النهر العذبة وثمار الأشجار وكثافتها مما يجعلها مكاناً جيداً للاختباء في حالة تعرضنا إلى مضايقات.

- وماذا عن سومر؟

- سنبقى هنا، على الساحل، هذه الليلة ننتظر وسنشعل النار من الآن عله يرى الدخان وربما يرى نور النار في المساء، ومن الفجر سنتوجه إلى النهر ونتبعه حتى مصبه النهائي وأظن أن سومر سيفعل هكذا، سومر بحار ماهر رغم صغر سنه ولن يستمر بالسير في ساحل الأعداء.

يذهب أنودال والعبد ليجمعا الحطب وربما بعض الثمار من الغابة القريبة، يتقدمان بحذر نحو الغابة ويبقيان حذرين داخل الغابة، فبلاد سومر وجيرانها مليئة بالحيوانات البرية

الوحشية، لقد رأى أنودال سابقاً الفيل الوحشي وفرس النهر والنمر والفهد والحمار الوحشي والذئب، لكن هذه المرة الأولى التي يرى فيها أليم (الثور الوحشي ذو اللحية) لا يبدو وحشياً جداً وهو يسير بحذر وينظر إلى جهة أنودال المختبئ ويتعد باتجاه النهر. أنودال لم يسافر كثيراً كما يفعل صديقه سومر الذي يعود كل مرة ويحكي له عن الحيوانات التي شاهدها وعن الطيور الغريبة الكثيرة. أنودال لا يعرف من الطيور غير الببغاء والطاووس الموجودة بكثرة في أور إضافة إلى الحمام والعصافير وبعض الطيور المهاجرة التي لا يعرف أسماءها. عاد أنودال ببعض الحطب وعاد العبد ببعض المشمش الأصفر وكمية من الحطب أكبر مما جمع أنودال. كان أيسو قد صنع أعمدة الشواء، غصنين يابسين متقابلين وغصنا أخضر طريا يخترق جسد الأرنب البري ويستقر على الغصنين المتقابلين.

اشتعلت النار وراح العبد يحرك الأرنب، يقلبه باستمرار بينما أخرج أنودال مديته وراح يصنع له نايّاً من

القصبة الصغيرة التي أحضرها معه من الغابة، وكان أيسو غارقاً في هدوء البحر الذي لم يكن هكذا في الليلة الماضية.

- أتعرف يا أنودال، يتكلم أيسو وهو ما زال مستغرقاً في المياه العميقة، أنا كنتُ شاكاً في غرق مراكب للا، كان الأمر يبدو غريباً بالنسبة لي، لكنني تأكدت اليوم لما رأيت غضب المياه العميقة وماذا فعلت بنا البارحة.

- وما الذي جعلك تشك في رواية للا عن الغرق؟

- خلال خدمتي الطويلة مع السيد للا، تعرضت تجارته لكثير من العراقيل، خصوصاً أوقات الحرب، تلك الأوقات المجنونة التي إما تجعل التاجر مفلساً إلى الأبد وإما أن تجعله غنياً حتى سابع وريث، كان السيد للا يتعامل مع كل ما يعترض تجارته بأخلاق وصبر وتحمل، لم يبدُ عليه الانزعاج والتوتر كما كان عليه في هذه المرة، مما جعلني أشك أن الأمر يتعدى غرق مراكبه التي لا

علم لي بموعد حركتها ولا من أي ميناء أبحرت
وماذا كانت محملة.

- ما زلت تفاجئني يا أيسو، نعم الأمر أكبر من غرق
مراكب مجهولة.

- ماذا تعرف يا أنودال ولا أعرفه.

- لقد قتل الملك أورنمو قبل ثلاثة أيام من وصولكم
إلى أور، قبل 7 أيام من اليوم يا أيسو.

- أحقاً ما تقول يا أنودال، مثل هكذا خبر لا يمكن أن
يبقى طي الكتمان، ثم ما علاقة موت الملك بسيدي
للا وإبحارنا المفاجئ إلى جمان؟

- لقد خيبت ظني بذكائك يا أيسو، ألم تفهم بعد ما
علاقة موت الملك برحلتنا؟

- لم أفهم يا أنودال.

- إنه سومر يا أيسو، إنه سومر، قالها أنودال وجلس
مستوياً وضرب بيده على رأس أيسو وكأنه يجبره
على محاولة التفكير قليلاً.

- لم أفهم علاقة سومر بالأمر، ملك أور قتل، مات، وماذا في ذلك، سيأتي ابنه دونغي مكانه كما كان مُعدًّا سلفا وكما كل سكان أور يعرفون، ما علاقة سومر بالأمر؟ لم يريد أبوه أن يبعد سومر عن أور؟ ثم لماذا لم يعلن موت الملك وقد مضى عليه ثلاثة أيام قبل وصولنا كما تدعي؟

- بالرغم من وجودك كل هذه الفترة في بلاد سومر إلا أنك ما زلت تجهل عاداتهم، دينهم، قوانينهم، ربما لابتعادك الدائم في تجارة السيد للا وربما لسبب ما أجهله.

- لا هذا ولا ذاك، أيسو مقاطعاً، بل لأنني لا أهتم، هذا كل ما في الأمر، تركت الاهتمام بالحياة خلفي، هناك، ولقد مضى زمن طويل على ذلك.

- لنبدأ من البداية إذن يا أيسو، قبل وصولكم بيوم جاء أحد حراس الملك يبحث عني ووجدني في بيتي العائم خارج أور، كان وقت الضحى وكنت لم أصحُ

بعد من لذة ليلة سابقة قضيتها حتى الفجر في المعبد،
بدا مرتبكاً جداً وحاول عدة مرات الانصراف،
لكنني لم أترك الأمر على سجيته بل رحت لأطفه
وقدمت له الخمر ولم أسأله عن سبب مجيئه وأردته
أن يشعر بالأمان لأنه كان خائفاً جداً من شيء ما
وكان يلتفت وهو جالس في داري، بعد أن أخذت
الخمرة مفعولها قال:

- - لقد مات الملك.

- - ملكنا، ملك سومر وأكد، أورنمو مات؟ أحبته
مستغرباً لأنني كنت أتصور أن الملوك خالدين
كالآلهة.

- - نعم، مات من يومين وسيعلنون عن موته كما
تقتضي العادة بعد أن يعبر بوابة العالم السفلي، يقال
إنه يحتاج ثلاثة أيام كي يعبر، لقد دفناه بالأمس،
لذلك فسيتم الإعلان عن موته بعد غد، ثم سألني إن
كنت حضرت دفن ملكٍ من قبل؟

- - لا، أجبته وأردت تهدئته فرحت أبتسم وأضفت:
- - لم أكن أعرف قبل الآن بأن الملوك يموتون مثلنا، فالملوك الذين سمعت عنهم يعيشون أطول مما ينبغي، إنهم آخر من يموت من السكان.
- - هذا من حسن حظك يا أنودال .

قالها الحارس وهو يضحك بازدراء، كانت ضحكته أقرب إلى البكاء، ثم حلق بمياه النهر التي كانت مرتفعة وتعكس ضوء الشمس إلى داخل البيت القسبي المفتوح الباب وقال:

- لقد أمر الملك أورنمو ببناء مقبرة ملكية له ولأسرته وقد تم الانتهاء منها منذ خمس سنوات، هذا ما عرفته لاحقاً، مقبرة سرية حتى أنا الحارس الملكي لا أعرف مكانها، تم إبلاغنا أن نجتمع في زقورة أور الجديدة التي لم تكتمل بعد وعندما ذهبنا وجدنا السانكا أوتونابشتم بانتظارنا مع بعض الكهنة الآخرين، كنا خمسة حراس، من أخلص حراس

قصر الملك، قادنا السانكا بنفسه إلى المقبرة بعد أن ربط الكهنة أعيننا وراحوا يقودوننا ونحن نسمع عبارات مقدسة يطلقها السانكا ويرددها خلفه الكهنة التابعون، مشينا مسافة ليست بعيدة لكننا خرجنا من الزقورة، عرفت ذلك لأنني أحسست ببرد الهواء الخارجي، لكننا لم نخرج من الباب الذي دخلنا منه، هذا أكيد، لم ننزل السلالم الطويلة التي صعدناها في طريق الدخول، ثم نزلنا سردابا يقع بعيداً في باطن الأرض لأننا نزلنا سلالم كثيرة. حينما فتحوا عيني كان أول شيء رأيته هو بلاط الأرضية الحجري البارد، كان مليئاً بالنقوش التي لا أعرفها، لكنها كانت مخيفة، فقد صورتها حية وتتحرك في بادئ الأمر، لكن بعدما تعودت عيني على المكان علمت بأن هذه الحياة الزائفة التي كانت تحرك النقوش التي على الأرضية وعلى الجدران وحتى تلك الموجودة على السقف كانت من انعكاس الضوء المعلق بدقة متناهية وموزع بطريقة منتظمة في زوايا السرداب

الكبير. أبلغنا السانكا بوفاة الملك المسجي في الغرفة الأخرى التي تفوح منها رائحة البخور والعطور المكتظة بالطقوس والخوف من المجهول، وأنه اختارنا لإخلاصنا وأمانتنا لتنفيذ مهمة غاية في النبل وهي حفظ النظام في الموكب الملكي العابر لهذا العالم نحو العالم السفلي، لم نكن نفهم ما يتوجب علينا فعله، ورحنا نسترق النظر إلى وجوه بعضنا البعض علّا أحدنا ينجدنا بشيء قد يكون توصل إليه قبلنا، حتى وزّع السانكا علينا أدوارنا ففهمنا مهمتنا بالضبط.

– وماذا كانت أدواركم؟ سألته بعدما أحسست بشعور غريب، إنها أول مرة تغادرني الخمرة وأنا ممسكٌ بها.

– كان على أحدنا أن يقف خلف باب السرداب من الخارج بعدما يدخل كل أفراد الموكب الملكي ولا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج، وكان على ثلاثة

منا هم أقرب الحراس للملك مرافقة الموكب إلى العالم السفلي، بينما كان عليّ أن أقف خلف باب السرداب من الداخل وأمنع القادمين من الخارج من الدخول إلى السرداب - لو استطاعوا أن يعبروا الحارس الواقف بالخارج - وأمنع أي محاولة للخروج من السرداب إلى الخارج، كما عليّ مساعدة السانكا الجديد بإتمام آخر طقوسه ومرافقته إلى الخارج والتأكد من إغلاق المقبرة وتغيبها تماماً عن الناس.

- أحاول أن أفهم لكنني عاجز تماماً عن الفهم، هكذا أخبرته لأنني فعلاً لم أتمكن من فهم شيء مما يقول، ربما لأنني كنتُ مندهشاً جداً وحال اندهاشي دون أن أفهم ما يقول وربما لأنه كان يروي التفاصيل وهو غائبٌ تماماً عن هذا العالم وينظر إلى مكانٍ بعيد في السماء من خلال فتحة الباب، لكنه على أية حال لم يلتفت لما قلت وراح يخبرني:

- تركنا السانكا وراح للغرفة المجاورة التي كان يرقد فيها جسد الملك يتبعه الحراس الثلاثة الذين عليهم مرافقة الموكب وقاموا بترتيب الأغراض المكومة على أرضية الحجرة بتوجيه من السانكا، أسلحة الملك الشخصية وصناديق ثيابه وحليه وجواهره وأنواع الطعام الطيب الرائحة، المطبوخ بمهارة، لحوم غزلانٍ برية وخراف ولحم جمال ومجموعة من بيض النعام المصبوغ باللون الأحمر الخفيف، أقراص خبزٍ شهية وجرار خمرٍ كثيرة قال عنها السانكا الجديد وهو يصحبني أنا والحارس الآخر نحو باب السرداب لنأخذ مواقعنا: إنها زاد الملك وحاشيته أثناء عبورهم قارب القدر نحو بوابة العالم السفلي.

كان السرداب يشبه الحرم الملكي في قصر الملك، هكذا بدا لي بعدما استقرت نفسي قليلاً، من حيث أقف يذكرني المنظر ببوابة غرفة الملك وكيف يستقبلني البهو العظيم ثم غرفة الملك على اليمين

بشقيها الشمالي المطل على الحديقة والجنوبي
الملتفّ بستائر السرير الحريرية الملونة وأنفاس
الملكة العارية التي لم أكن أعلم ما خلف هذه
الستائر، ولم أكن أجروّ على السؤال عما خلفها،
لكنني كنتُ أتخيل امرأة لا تشبه نساء سومر، بجسد
إينانا، بنعومة الصابون وبعطر القداح السومري، إلا
أن لا نوافذ تطل على الحدائق في هذا السرداب
المخصص للعبور من عالم إلى عالم، كان القسم
الشمالي منه مليئاً بالماء ومحاطاً بالرخام والتماثيل
العاجية وأدوات الزينة وقناني العطر الفخارية
 وأنواع الصابون المعطر وكؤوسٍ ذهبية مطعمة
باللازورد ومرايا مذهبة وأدوات موسيقى كثيرة
ومختلفة، ناياتٌ كثيرة وطبول وخرزٍ ملونة تصدر
الأصوات وأعداد كثيرة من القيثارات، لفتت انتباهي
قيثارة مذهبة في رأسها تمثال لرأس (أليم) - ثور
سومر المجنح بلحيته الطويلة كحكيمٍ وقور- عندما
سألت السانكا الجديد عن سبب وجود هذه المياه

أجابني بأن هذا الذي أراه إنما هو حمّام الملكة
ووصيفاتها اللاتي سيحضرن بعد قليل وسوف يكون
الغسل المقدس الذي يمنح أجسادهن الاطمئنان كي
يمشين نحو بوابة العالم السفلي دون ألم.

هنا صرخت بلا وعي: هل على الملكة أن تعبر مع
الملك وهي بعد لم تفارق الحياة؟

أجابني وهو مطرق: من أجل ذلك أنت هنا.

لم أستطع أن أسأل أكثر فقد ساد المكان صمتٌ
حزين وهو يسمع جلبة خلاخيل الملكة ووصيفاتها
وهمهمة الحراس المرافقين، التصقت بالجدار كي
يعبرن ويعبر معهن العطر المتموج من شعرهن
وعرقهن كتموجات قوس سومر الذي يظهر بعدما
تبتسم الشمس وتتوقف السماء عن البكاء.

دخلت الملكة أولاً ثم وصيفاتها ثم حراسها وأقرب
المقربين منها، ووقفوا حول جسد الملك الذي
يحكمهم حياً وميتاً، وراح السانكا أوتونابشتم يقرأ

الطقوس بصوتٍ أبج والكهنة يرددون وراءه
كالبيغاوات، بينما كانت الملكة تقف بثقة غريبة لا
أعلم مصدرها ثم قال السانكا العظيم:

- سأبدأ الآن أيها الأحباب بتناول السم لأكون أول
اللاحقين بالملك، سأقف على يمينه منتظراً معه
قدومكم في مركب القدر الذي ينتظرنا كي نبدأ
الإبحار نحو العالم السفلي حيث نستقر هناك في
النعيم الأبدي مع مليكنا المحبوب ونعيش حياة خالدة
مع كل من أحببناه وأحبنا بإخلاص..

- وماذا عن أحببته وأحبني بإخلاص يا أبي؟
قاطعته إحدى وصفات الملكة بصوتٍ زلزل ثقة
الملكة وجعلها تنفجر بالبكاء.

- إنها دلمون "قالها أنودال بلا وعي"

- نعم يا أنودال وأنا هنا كي أنفذ رغبتها بإخبار
قصتها إلى حبيبها سومر، لكني لا أجرؤ على إخبار

سومر وجهاً لوجه، لذلك اخترتك كي توصل إليه
رغبة دلمون بمعرفة قصتها.

- لكنك لم تخبر سومر بهذا يا أنودال، أليس كذلك؟
"سأل أيسو أنودال وهو لا يكاد يصدق ما يسمع"

- لم أستطع يا أيسو، لم أستطع

- وماذا أخبرك الحارس بعد ذلك؟

- - نعم، قال بأن السانكا توجه نحو دلمون وضمها
إلى صدره وقال: لا تفقدي إيمانك بالآلهة الآن يا
حبيبتي، عليك أن تعلمي بأن الآلهة حكيمة وعادلة
وهي تدبر أمورنا بما فيه مصلحتنا، إنها تعلم ما
يصلحنا ويسعدنا أكثر مما نعرف نحن.

- - وأي حكمة وعدالة أن نساق كقطيع الأغنام الداخل
إلى مذبح المعبد كي نقدم قرابين لشخص لا يختلف
عنا غير أننا وجدناه ملكاً علينا؟ وما ذنبنا أن نموت
عند موته؟ ألا يكفي الآلهة أن كنّا أدوات لخدمته
وإضحاكه وتسليته في حياته حتى نكون له خدماً إلى

الأبد؟ أين العدالة في أن يكون ملكاً ونكون عبيداً؟
أين الحكمة في أن تخلقنا الآلهة غير متساوين في
الحظوظ في هذا العالم وفي العالم الآخر؟

- - كي نفهم حكمة الآلهة يتوجب علينا أن نكون آلهة
يا حبيبتي، ولأننا لسنا آلهة علينا أن نقرّ بالعجز عن
إدراك حكمة الآلهة.

- - أنا لست إينانا يا أبي ولا أريد أن أكون إلهة ولا
أريد أن أفهم حكمة الآلهة، ولا أريد الخلود، كل ما
أريده أن أكون مع من أحببته بصدق وأحبني
بصدق، كل ما أريده أن أكون مع سومر.

- - قضي الأمر يا حبيبتي ولا جدوى من الكلام،
اعزفي لأبيك يا سيدة موسيقيي سومر وانثري
السعادة على الأبطال الواقفين هنا في هذه المحطة
الأخيرة في هذا العالم، ولتكوني آخر من يلحق بنا
بعد أن يرحل الجميع باطمئنان.

ثم تقدم السانكا العظيم وهو يتعكز على السانكا
الجديد باتجاهي ووشوشني وهو يميل بقامته الطويلة
إلى أذني: تأكدا أن تبقياها آخر القادمين وتسقياها
السُّم المقدس برفق بعد أن تغتسل في حمام الملكة
ولتمنحوها الوقت الكافي كي تتعطر فهي تحب
التعطر كثيراً وأن تحملوا جنتها وتضعوها بحضني
وحتى ذلك الوقت فهي ستكون مشغولة بالعزف
على القيثارة.

راحت دلمون تعزف بحرقة الحب الذي لم يكتمل
وبقسوة الشك الكبير على تحمل قلبها السومري
الصغير، الشكُّ حد الكفر بكل حكمة الآلهة الجبابرة
الذين يحكمون العالم من بعيد ويتحكمون بالقلوب
والرغبات كالدمى، بينما جلس السانكا أوتونابشتم
على يمين الملك المسجي وبكأسٍ من ذهب شرب
جرعتين من السُّم المقدس و...

ثم لاذ الحارس بالصمت، صمت طويلاً، لكن ليس أطول من صمتي يا أيسو، لم أكن أدري ماذا أفعل، هل أبقى صامتاً؟ هل أصرخ؟ هل أبكي؟ هل أطلبه بإتمام كلامه بسرعة؟ أم أطلب من الحارس أن يسكت للأبد؟ لكنني فضلت الصمت أخيراً والتحديق في عيني الحارس الذي مازال صامتاً لأنني فسرت صمته بأنه هو الآخر لم يعد يدري ماذا يفعل، هل يخبرني بما حدث فقط دون أن يحشر ملاحظاته التي لا تقبل منه عدم الاهتمام بل تطالبه بالتوقف وتحليل كل موقف؟ شعرت وكأنه ندم لأنه أخبرني ولم يبق صامتاً كما كان يجب عليه، أحسست بأنه محتاج لإنسان يسمع منه ليس ما حدث فقط بل يسمع منه ما شعر به عند كل موقف حصل معه في السرداب الغريب ومن ثم يختفي ذلك الإنسان أو يصاب بالنسيان أو يرحل إلى أرض بعيدة باتجاه واحد لا يقود إلى أرض سومر، إنه يريد أن ينزل هذا الحمل الثقيل الذي التصق بعظام ظهره حتى

كأنه أصبح جزءاً منها كالحُدية، لكنه أخيراً نظر في عيني بعمق وقال لي:

- أريدك أن تفهم يا أنودال خطورة ما أخبرتك به وما سوف أخبرك، أنا أشعر بالاختناق يا أنودال، يجب علي أن أخبرك، لكن أريدك أن تعرف بأني ابن السانكا الجديد، لذلك لم يقع علي الاختيار بالموت، أنا واثق بأن لأبي دوراً في اختيار من يرافق الملك في رحلة العبور نحو بوابة العالم السفلي ومن يبقى يرافق الكاهنات في رحلات السرير. لقد تسربت إليّ كل شكوك دلمون عن الآلهة والدين وعمن يستغل هذه العقائد ومن هو المستفيد من كل ما حدث، لماذا كان على الخدم والعبيد والوصيفات أن يموتوا مع الملك وليس ابنه الجالس على العرش الآن؟

كان أبي يردد العبارات المقدسة ويبتسم بداخله، بينما كان السانكا أوتونابشتم يكرع السُّم المقدس، لا

أدري من قدس هذا السُّم؟ جرعتين كانتا كافيتين
ليكنتم صرخة وصلت إلى ما قبل حنجرتي وخرجت
من عينيهِ اللتين كانتا تشبهان الحمم البركانية وهي
تقذف أحشائها بعيداً في وسط البحر، حاول أن يكتم
ألم احتراق شرايينه وعروقه وأن يخفي مسحة
الخوف التي احتلت كل كيانه دون جدوى، إنه
الضعف البشري يا أنودال شاهدته بعيني السانكا
أوتونابشتم، رأيته كيف تحول لونه ببطء من الأسمر
إلى اللون الأصفر ثم اللون الأزرق ثم استقر لونه
أخيراً وصار بلون الرماد، بارداً، مقهوراً، خائفاً من
نتيجة إيمانه لو كانت عكس ما يعتقد.

أما دلمون فإنها لم تلتفت إلى أبيها وما زالت تعزف.
بعد أن سكنت حركة السانكا أوتونابشتم، بانث على
الوجوه بواذر الخوف والاضطراب وكثر الهمس
بين الرجال المرافقين للملكة خصوصاً، جمعنا أبي
السانكا الجديد نحن الحراس الملكيين الأربعة وطلب

منا أن نسرع في قتل الرجال أولاً، لأنه خاف من حدوث تمردٍ ما، إنه لم يقل لنا أن نقتلهم بصراحة بل كعادته استخدم تعبيراً دينياً مقدساً، قال: إنني أرى قلة صبر مرافقي الملكة على الانتظار كي يلحقوا بملكنا المحبوب وكاهننا الأعظم، لذلك عليكم أن تبدؤوا بهم أولاً. راح أبي ينادي على مرافقي الملك والملكة من الرجال وكان عددهم ثلاثين رجلاً طالباً منهم إفراغ الحجرة الملكية كي تستحم الملكة ووصيفاتها استحمامهن الأخير وأجلس الرجال على الأرض وجعل ظهورهم باتجاه الملك وراح يخطب بهم بلسانه المعسول الذي يخدع به أُمي دائماً وهي تراه بعينيهما وهو على ظهور الكاهنات، راح يخطب بهم بأدبه الشاعر المحترف، يصف لهم ما سيجدونه في الطرف الآخر من العالم من قصورٍ ذهبية مليئة بالطعام الفاخر الذي لا ينتهي وبقناني الخمر التي لا تجف وبالكاهناتِ الراقصات اللاتي لا يعرفن التعب. ثم ما إن يسيل لعابهم حتى يذكرهم

بالأمراض في هذا العالم والجوع وبالفعضانات التي
لا ترحم وبالحروب التي لا تنتهي، فبدأنا بهم من
الخلف نمسك الرجل ونضع في فيه السم وهو لا
يقاوم لأن السانكا الأعظم قد خدره تماماً حتى انتهينا
من الجميع بسرعة فائقة.

أما دلمون فإنها لم تلتفت إلينا ومازالت تعزف.

الحمام الملكي كان يضج بالارتجاف، كانت الملكة
عارية، صامتة وحولها الوصيفات كورق خريف
بلا حياة، لم يمتلئ بالضحكات والغناء كالعادة ولم
ترتفع أذرع النساء بالماء لممارسة عادة الرّش
الغريزية، دلمون لم تتوقف عن العزف لكنها مالت
برأسها على رأس (أليم) وبدأت أصابعها بالتمزق،
لاحظت قطرة أو قطرتين من الدم تسيل على أوتار
القيثارة، كنتُ ألتفت إليها بين الحين والحين وأنا
مشغولٌ بالرجال الثلاثين الذين كنا ننقلهم ونضعهم
حسب أوامر السانكا، كان يقول ضعوا هذه هنا وهذا

هناك، وضعناهم كما لو كانوا بحّارة ويأخذون مواضعهم على المركب الملكي الواقف بميناء أور منتظراً أمر الملك بالرحيل. كنا نحن الحراس نتسابق في القصر ونحن نحاول أن نسرق ولو نظرة واحدة للملكة وهي تصحو من نومها بملابسها الحريرية، وهي تجلس أمام النافذة المطلة على الحديقة وحولها وصيفاتها وهن مشغولات بتسريح شعرها وتدليك رقبتها ووضع زينتها، وهي من وراء الستر المقدس الذي يحجب أنظارنا، وهي عارية وسط حمامها المليء بأزهار الياسمين والجوري السومريين وهي تحكي لوصيفاتها عن لذة ليلة سابقة، كنّا نحسد من يحظى بنظرة خاطفة للملكة وهي عارية أو شبه عارية كما رأيتها ذات مرة، وكانت تشبه الحلم اللذيذ وها أنذا أراها أمامي عارية كشجرة صفصاف وسط الشتاء بلا روح، كانت يابسة ومبللة، تماماً كجذع نخلة قديم تحت المطر، أدركت حينها بأن الروح من يعطي الجمال

للجسد، وأن الجسد بلا روح مهما كان متناسقاً لا يعدو عن كونه تمثالاً رديئاً نحتته فنان دجال.

راح أبي يصبُ السّم المقدس في الكؤوس الذهبية للملكة والوصيفات الخمس والعشرين الجالسات حول حمام الملكة الجالسة معهن ليودعن الماء والعطر والصابون، ليودعن سومر والترف، كانت أعينهن حزينة وأكثرهن حزناً كانت الملكة التي بدت تترنح ثم سقطن كلهن بلحظة واحدة مع مليكتهن التي لم ينشف الماء بعد من شعرها وبدا منظرهن حول الحمام يشبه منظر الإوز المهاجر وهو يستريح على ضفاف نهر أدكنا.

أما دلمون فلم تلتفت إليهن ومازالت تعزف.

بعد أن نقلنا جثة الملكة وألبسناها تاجها وكامل زينتها ووضعناها في مكانها من مركب القدر العابر نحو المجهول ووضعنا وصيفاتها حولها، لم يبق في السرداب غير أنا والحراس الملكيين الثلاثة وأبي

وأتباعه الكهنة السبعة ودلمون، وجّه أبي شكره
للحراس الثلاثة الأوفياء وأبدى إعجابه بولائهم
وقوتهم وشجاعتهم وصب لهم السم بكأس الملك
شخصياً وكأنما طعم السم سيختلف لو كان بكأس
الملك ولم يكن بكأسٍ ثانية أخرى، وكان عليّ
وبمساعدة الكهنة أن أضعهم في مكانهم المخصص
حول الملك ولم يبق من المسافرين غير دلمون التي
لم تلتفت إلى الحراس ومازالت تعزف.

- لقد حان الوقت يا حبيبتي، قال لها أبي بعد أن
أمسكَ يدها بقوة وأوقفها عن العزف.

- أي وقتٍ تقصد؟ وقت قتلي؟

- لماذا تسمينه قتلاً؟

- لأنني لا أعرف لما تفعلون معنى آخر.

- هو الخلاص يا صغيرتي، هو الحرية، هو التحليق
في عالم آخر أكثر جمالاً.

- ومن جعلكم تختارون لنا أي عالم نعيش ومتى
يجب علينا أن نموت؟ أنتم تكفرون بالآلهة التي
تعبدونها وتجعلون من أنفسكم آلهة وتطالبوننا
بعبادتكم. أنا لا أريد الخلاص ولا الحرية وأنا مقتنعة
تماما ببشريتي وعجزي عن الطيران، كل ما أريده
أن أكون صاحبة الاختيار فيما يخصني، أعدكم أنني
لن أتدخل فيما يخصكم، أنا لا أفهم ماذا يضركم لو
تركتموني أعيش مع من أحببت بعيداً عن مدينتكم
ومعابد آلهتكم، هناك حيث تعيش الطيور
والحيوانات آمنة حول أدكنا وبروانن، تعيش حياتها
كلها بلحظة حب ولا تهتم لما بعد الموت، حتى
الموت لا يبدو بتلك البشاعة التي أراها الآن لو أننا
أسلمنا الروح ونحن بأحضان من نحب.

ثم رمقتني أنا من بين الجميع، رمقتني بنظرة لو
ترجمت إلى لغة ناطقة فلن تبق في سومر أدنّ
صالحة للسمع، كنت أتمنى أن أتحوّل إلى إله مستبد
وأقتل كل الآلهة وأنقذها ومن ثم أقتل نفسي وأهبها

الحرية كي لا يستعبدوها أحدٌ أبداً، لكنها لم تتركني
أتعذب أكثر وأحول ظنوني إلى وقائع وأصدقها
وقالت:

- أخبر حبيبي سومر بما فعلوا بي. ثم مدت يدها إلي
قيثارتها وتركتنا ننظر في وجوه بعضنا البعض
وراحت تعزف من جديد.

رأيتُ نظرة الانكسار في وجوه الكهنة وهم يتطلعون
إلى أبي يستجدونه أن ينهي هذه المعركة وبأي
خسارة مهما كانت وهو الرجل المعروف بدهائه،
فهم جداً، فهم طلبهم وراح يفكر في تنفيذه، لم
يستغرق وقتاً طويلاً في التفكير ثم قال بصوتٍ يشبه
عواء ذئبٍ جريح:

- سأعطيك حرية اختيار وقت موتك - كما ترغبين
- أنا أعرف أنك ستندمين لأنك لم تموتي سريعاً مثل
الباقيين، لكني لا أعرف كيف يمكن أن تبقي وحدك
في الظلام تحديق بك وجوه الموتى التسعة والخمسين

في هذا السرداب، إنهم ينتظرونك كي يبحروا نحو
بوابة العالم السفلي، تأكدي أنهم لن ينتظروا طويلاً،
ستكونين وحدك في المجهول المرعب، تتلقفك أكف
الشياطين وقطاع الطرق وأعوان أريشكجال التي لا
ترحم.

ثم وضع كأس السم الذهبي على تمثال إينانا
الرخامي الذي كانت تستند إليه دلمون وأشار لنا
بالمغادرة، كنّا فرحين جداً بهذه الإشارة كالجنود
المحاصرين من قبل العدو الذي لا يرحم وهم
يروون إعلان الانسحاب. أقفلنا الباب بإحكام وتركنا
الكهنة يردمون الأرض فوق مدخل السرداب الذي
ضاع في باطن الأرض وعدنا معصوبي العينين أنا
والحارس الآخر الذي وجد مقتولاً هذا الصباح ولا
أدري متى يحين دوري أم أن الآلهة العظام والسانكا
الأكبر لم يقرروا بعد، لكني مازلت أسمع عزف
دلمون حتى هذه اللحظة.

ثم بكى أنودال كثيراً كطفلٍ تائهٍ في السوق، بينما كان
أيسو في عالم آخر غير العالم الذي يجلس فيه مع أنودال
والعبد على ضفة بحر العيلاميين، كان عبد التاجر للا يُطعم
النار طوال تلك الليلة بتقاسيم وجهٍ لا توحى بشيء ولم تبدر
منه حركة أو تصرفٍ ما يدل على سماعه لقصة دلمون، لكنه
صرخ أخيراً قبيل الفجر بقليل:

- سيدي أيسو: هناك من يقترب منا.

أصيب أيسو بالدهشة وهو ينظر باتجاه إشارة العبد،
شيئاً فشيئاً راح القدر يكشف له عن أشباح القادمين نحوهم،
بينما كان هو غارقاً في طرح الأسئلة على قلبه الذي راح
يسرع في النبض كحصان جندي منهزم من ساحة المعركة،
أ يكون القدر رحيماً ويجمعون بسومر من جديد ويكملون
رحلة البكاء إلى أرض سومر؟ أم تراهم ليسوا سوى بضعة
جنود عيلاميين من حراس الشاطئ - إنه الهلاكُ إذاً - أم
ليسوا سوى تجارٍ آخرين قذفت بهم المياه العميقة كما فعلت

بهم من قبل؟ وبينما كان أيسو يحاول معرفة القادمين سقط
أنودال على الأرض.

حين أفاق كان يجد صعوبة في فتح عينيه، لكنه أحس
بوجود صديقه العجوز، فليوم الثالث على التوالي يحضر
العجوز إلى المستشفى ويجلس بقرب سرير صديقه العربي،
الغائب عن الوعي، ويعيد عليه نفس القصة:

- عندما عدتُ من إسبانيا بعدما بعت بيتي الصغير
هناك ومررت عليك في بيتك ولم أجذك، لم أشأ في
البداية أن أسأل عنك الجيران، أنت تعرفهم، لا فائدة
ترتجى منهم، إنهم يراقبونك من بعيد، يراقبون كل
خطوة تقوم بها وعندما تسأل أحدهم عنك يأتيك
الجواب: لا أدري. بعد يومين ذهبتُ إلى البحر
ورأيت سيارتك هناك ورأيتُ عربة القارب فارغة،
أدركت عندها بأنك ذهبت إلى الجزيرة المهجورة،
عدتُ في نفس اليوم بعدما لم يترك لي القلق باباً آخر

أطرقه وسألت عنك صاحب محل عدة الصيد،
أخبرني بأنه يفتقدك كثيراً وأنه لم يرك منذ أسبوعين
وكان يعتقد بأنك مسافرٌ إلى مكانٍ ما، لكنني عندما
أخبرته عن أنني رأيتُ سيارتك على الشاطئ وأنت
قررت الاحتفاظ بقاربي كي تذهب به إلى الجزيرة
المهجورة، قرر معي أن نتصل بالبوليس الذي
أرسل فرقة إنقاذ ووجدوك مغمىً عليك وسط
البحيرة القديمة الجافة في الجزيرة المهجورة. لا
أدري ما الذي حصل معك هناك؟ يقولون إنها
محاولة انتحار، فالقارب كان يعمل ومليء بالمؤن،
لكنك قررت أن تضرب عن الطعام والشراب وسط
الجزيرة وتترك المؤن في القارب على رصيف
الميناء المهجور، لكنني أعتقد بأنني أعرفك، أخبرتهم
إنه لم يكن يائساً، إنه يصلي...! وبحسب ما أعرف
فأن الذين يصلون لا ينتحرون، وإذا كان ينوي
الانتحار فلماذا أخذ معه كل هذه المؤن؟ لا أدري يا
صديقي ما الذي حصل بالفعل، لكنني أعرف تماماً

بأنك لم تكن تنوي الانتحار وأنت ستستفيق قريباً
وستخبر الجميع بأنني على صواب. أخبرتني طبيبتك
المعالجة بأنك بدأت تستجيب للعلاج وأن وضعك
مستقر وتم تعويض السوائل التي فقدتها. هناك من
لا تعجبهم ثرثرتي معك كل يوم وخصوصاً هذه
المرضة الشمطاء التي ترمقني الآن من خلف
الزجاج، سأذهب الآن وسأعود إليك غداً. يبدو يا
صديقي أن لديك زواراً غيري، فأنا لم أحضر هذه
الزهور الجورية الحمراء التي تزين الطاولة
الصغيرة عند قدميك.

كان يبتسم في داخله وهو يسمع انتقادات صديقه
العجوز التي لا تنتهي لجيرانه، كان ممتناً أيضاً لهذا العجوز
الذي يتفقدته كل يوم، بالأمس لم يكن يع أي شيء حوله، فتح
عينيه مرتين أو ثلاث مرات، لكنه لم يستطع تمييز الأصوات
والوجوه، اليوم استطاع تمييز صوت صديقه العجوز جيداً،
وكان بوده لو يفتح عينيه ويجلس على السرير ويمد يديه
ويحتضنه لكن ثقل جفونه أفلت كل محاولاته بفتح عينيه،

لذلك راح يستمع مستسلماً بسعادة لتدفق كلام صديقه العجوز، وكان يتمنى لو أنه بقي يتكلم حتى يفقد وعيه مرة أخرى ويغرق في بحر الهروب من الصور المتقطعة التي تهاجم ذاكرته العائدة إليه حديثاً.

آخر ما يتذكره هو أشباح رجال الإنقاذ وهم يحيطون به، أحذيتهم الجلدية السوداء كأحذية الجنود الذين يخاف منهم، حقائبهم المليئة بالماء المغذي والأشرطة اللاصقة ورائحة الديتول، الرياح الشديدة التي أحدثتها مروحية الإنقاذ، ملمس قاع البحيرة الجاف الخشن وهو يوجع خده الأيمن ويترك فيه أثراً، كيف جفت هذه البحيرة بسرعة؟ هل كانت هناك بحيرة في الأصل؟ كيف سقط مغشياً عليه؟ هل كان يحلم بإسبانيا والأندلس وصديقه البوذي؟ إنه لم يقرأ عن السومريين يوماً فكيف يشعر وكأنه عاش بينهم؟ هل كان يهذي؟ أم هي مجرد لحظة تجلٍ صوفية؟

قاطعت أفكاره طبييته المعالجة وهي تدخل مبتسمة تحمل وردةً جورية حمراء وتضعها مع الأخريات على

الطاولة الخشبية الصغيرة عند أسفل قدميه وتقترب منه
وتمسك بيده وتتنظر بساعتها وتحسب عدد نبضاته، شعر بأن
الكون كله يتدفق إليه من خلال يدها،

فتح عينيه،

لديها وجه مألوف،

إنه يعرفها،

إنها العابرة،

دلمون.

– هل عادت إليك ذاكرتك الآن؟ سألته بمكر.

– امممممم، نعم.

| انتهت |

صدر في هذه السلسلة

1- جمال الجزيري: مقهى الأدباء: رواية قصصية. ط1، يونيو 2015

<http://www.mediafire.com/?zswdkv9aslw5h6j>

2- جمال الجزيري: خارطة العودة: رواية تفاعلية غنائية. ط1، يونيو 2015.

<http://www.mediafire.com/?ic8ob4o2ppto187>

3- أحمد سيد طه: حكايات ألف نيلة ونيلة: رواية. ط1، يونيو 2015.

<http://www.mediafire.com/?0we9ua9c2wx6ax2>

4- محمد السيد الغتوري: أنشودة الشيطان: رواية. ط1، يونيو 2015.

<http://www.mediafire.com/?3whm8nzqk4c23k2>

5- أميمة أحمد العزيز: القلادة: رواية. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1،

أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?ia0gxee0lk6dpet>

6- محمد السيد الغتوري: أسطورة العصامية: رواية. دار حمارتك العرجا للنشر

الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?lzm8mdiooipge5i>

7- أشرف توفيق: نجمة يناير: رواية. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1،

أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?gi8rgsy02399cz4>

8- إيهاب بديوي: مئة عام من الحزن: رواية. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني:

ط1، أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?9cz3e438oda78o7>

9- جمال الجزيري: طقوس العبور: رواية قصيرة. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?o0ds9okuzdffpk1>

10- جمال الجزيري: نار هادئة: رواية قصيرة. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?kjb25vibqkqp60k>

11- جمال الجزيري: هروب دائري: رواية قصيرة. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?knvo5fh9512qpz9>

12- جمال الجزيري: فيلم طويل: رواية قصيرة. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?8ag10ozn00jyn7m>

13- جمال الجزيري: مشروع تخرج: رواية قصيرة. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?592droqa4m6gvc9>

14- جمال الجزيري: وقود الحركة أو الموعد الآخر: رواية قصيرة. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?p5is4zzo1kbis11>

15- محمد السيد الغتوري: مش عيب! رواية. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

زيد عمران: العابرة: أقدم قصة حب في التاريخ، رواية. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، فبراير 2016

<http://www.mediafire.com/?cdtmoqp3nkhws5v>

16- إيهاب البديوي: أوناس... خيال الظل: رواية. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

<http://www.mediafire.com/?yrwcxreqcx0a9c5>

17- سمير أحمد الشريف: همس الشبابيك: رواية. ط1، نوفمبر 2015.

<http://www.mediafire.com/?kg99nn1d3e48x7a>

18- هاني النجار: قهوة محروس في اليوم المنحوس: رواية. ط1، نوفمبر 2015.

<http://www.mediafire.com/?0m04fzbtz6zt6re>

19- أشرف مصطفى توفيق: الأفوكاتو: رواية. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، ديسمبر 2015.

<http://www.mediafire.com/?jyay8jo0xscucff>

20- زيد عمران: العابرة: أقدم قصة حب في التاريخ: رواية. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، فبراير 2016.

فهرس

العنوان	الصفحة
الإهداء	4
الفصل الأول	
الصياد	6
الجزيرة المهجورة	35
العبارة	61
الفصل الثاني	
العبد الأبق	98
الراهب	113
الهجين	131
اليهودية	151
الفصل الثالث	
سومر	180
أنودال	202
عيد الخصب	219
الرجل العجوز	236
دلمون	254
صدر في هذه السلسلة	299